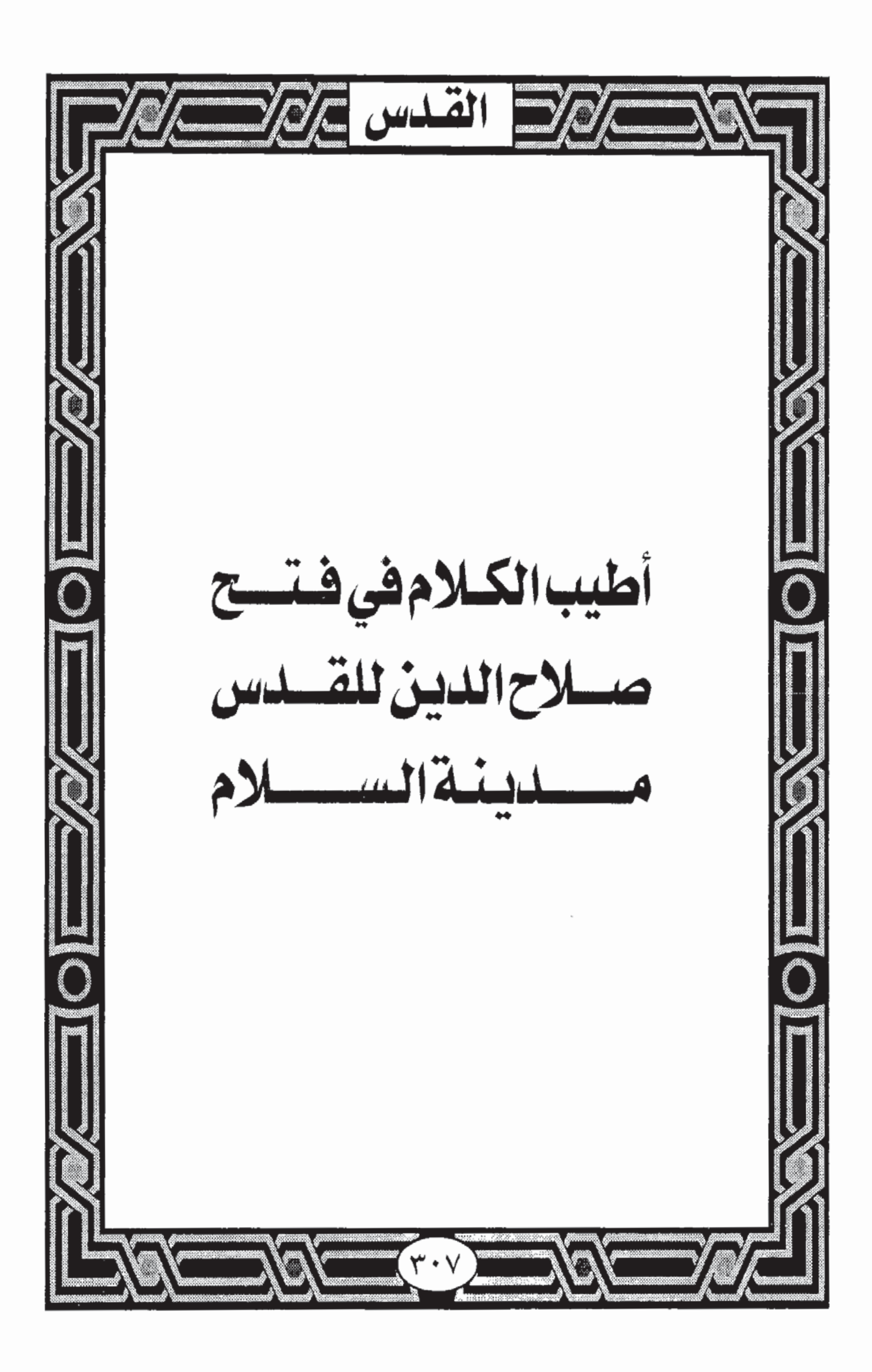


أطيب الكلام في فتح صلاح الدين للقدس مدينة السلام

أطيب الكلام في فتح صلاح الدين للقدس

وهذا فصل يكتب بماء العيون، نورده بأقلام الفصحاء البلغاء من أساطين أعلام المسلمين... يلوح في كل سطر منه.. فرح المسلمين بهذا النصر العظيم الذي أعاد للناس فتوح الصحابة وأيامهم:

وصف الفتح بقلم القاضي ابن شدّاد:

قال القاضي ابن شدّاد: لما تسلَّم السلطانُ عَسْقلان والأماكن التي هي محيطة بالقُدْس، شمَّر عن ساق الجِدِّ والاجتهاد في قصده، واجتمعت إليه العساكر التي كانت متفرِّقة في السَّاحل بعد قضاء لُبانتها من النَّهْب والغارة، فسار نحوه معتمدًا على اللَّه، مفوِّضًا أمره إلى اللَّه، منتهزًا فُرصة فتح باب الخير الذي حُثَّ على انتهازه إذا فُتح بقوله عليه السلام: «**من فُتحَ له بابُ خَيْرٍ فلينتهزه، فإنه لا يُعلم متى يُغلقُ دونه**»[(١)]، وكان نزوله عليه ـ قَدَّس اللَّه روحه ـ يوم الأحد الخامس عشر من رجب، فنزل بالجانب الغَربي، وكان مشحونًا بالمقاتلة من الخَيَّالة والرَّجَّالة، ولقد تحازر أهل الخِبْرة عِدَّةَ من كان فيه من المقاتلة بما يزيد على ستين ألفًا ما عدا النساء والصبيان. ثم انتقل ـ رحمه اللَّه ـ لمصلحةٍ رآها إلى الجانب الشمالي، وكان انتقاله يوم الجمعة العشرين من رجب، ونصب عليه

---

(١) مرسل: أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١١٧)، وأحمد في «الزهد» (٤٧٢) من حديث حكيم بن عمير مرسلاً، وأورده المزي في «تهذيب الكمال» (٨/ ١٧٢) من قول خالد بن معدان.

المنجنيقات، وضايقه بالزَّحف والقتال وكثرة الرُّماة، حتى أخذ النَّقْب في السُّور مما يلي وادي جهنَّم في قُرنة شمالية. ولما رأى أعداء اللَّه ما نزل بهم من الأمر الذي لا يندفع، وظهرت لهم أمارات نُصرة الحق على الباطل، وكان اللَّه قد ألقى في قلوبهم الرعب بما جرى على أبطالهم ورجالهم من السَّبْي والقَتْل والأسر، وما جرى على حُصونهم من الاستيلاء والأخذ، علموا أنهم إلى ما صاروا إليه صائرون، وبالسيف الذي قُتلَ به إخوانهم يُقْتلون، فاستكانوا وأخلدوا إلى طلب الأمان، واستقرَّت القاعدة بالمراسلة بين الطَّائفتين. وكان تسلُّمه له يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وليلته كانت ليلة المعراج، المنصوص عليها في القرآن المجيد، فانظر إلى هذا الاتفاق العجيب، كيف يسَّر اللَّه عوده إلى أيدي المسلمين في مثل زمان الإسراء بنبيِّهم صلى اللَّه عليه وعلى آله وصحبه وسَلَّم، وهذه علامةُ قَبُول هذه الطَّاعة من اللَّه تعالى[١].

✍ قلتُ: هذا أحد الأقوال في ليلة المعراج، وفي ذلك اختلافٌ كثير، ذكرناه في مواضع غير هذا، واللَّه أعلم.

◻ ثم قال القاضي: وكان فتوحًا عظيمًا شهده من أهل العِلْم خَلْقٌ عظيم، ومن أرباب الخِرَق[٢] والحُرَق[٣]؛ وذلك أن النَّاس لما بلغهم ما مَنَّ اللَّه به على يده من فُتوح الساحل، شاع قصدُه للقدس، فقصده العلماء من مصر والشام، بحيث لم يتخلف معروفٌ عن الحضور، وارتفعت

(١) **هذا لا يصح**.. فقد قال الحافظ ابن حجر في «تبيين العجب فيما ورد في فضل رجب»: أما ما يقوله القصاص والمذكرون من أن الإسراء والمعراج كان في رجب فذلك كذب».

(٢) يعني الصوفية.

(٣) الحرق: السيوف الماضية، ولعلّ المراد من أرباب الحرق هم المتطوّعة.

الأصواتُ بالضجيج والدُّعاء، والتهليل والتكبير، وخُطبَ فيه، وصُليت فيه الجمعة يوم فَتْحه، وحُطَّ الصليب الذي كان على قُبَّة الصَّخْرة، وكان شكلاً عظيمًا، ونصر اللَّه الإسلام نصر عزيزٍ مقتدر. وكان قاعدة الصُّلح أنهم قطعوا على أنفسهم عن كل رجلٍ عشرة دنانير، وعن كل امرأةٍ خمسة دنانير، وعن كل صغيرٍ ذكر أو أنثى دينارًا واحدًا.

قلتُ: كذا قال، وسيأتي في كتاب العماد أن على كل صغير دينارين، وكذا قال: إن الجمعة صُلِّيت ببيت المقدس يوم فتحه، وسيأتي في كتاب العماد التصريح بأنَّ يوم الفتح ضاق عن ذلك، فَصُلِّيت في يوم الجمعة الآتي.

ثم قال القاضي: فمن أحضر القطيعة سَلِمَ بنفسه وإلا أُخذ أسيرًا، وفرَّج اللَّه عمن كان فيه من أسرى المسلمين، وكانوا خَلقًا عظيمًا زُهاء ثلاثة آلاف أسير، وأقام عليه ـ رحمه اللَّه ـ يجمع الأموال ويفرِّقها على الأمراء والعلماء، ويوصل من دفع قطيعته منهم إلى مأمنه، وهو صور.

قال: ولقد بلغني أنه ـ رحمه اللَّه ـ رحل عنه ولم يبق معه من ذلك المال شيء، وكان مئتي ألف دينار وعشرين ألفًا، وكان رحيلُه عنه يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان سنة ثلاثٍ وثمانين وخمس مئة»[1].

* فتح بيت المقدس بقلم الحافظ ابن كثير:

قال الحافظ ابن كثير تحت عنوان «فتح بيت المقدس واستنقاذه من أيدي النصارى بعد أن استحوذوا عليه مدة ثنتين وسبعين سنة»: ـ

---

(١) «عيون الروضتين» لأبي شامة (٣/ ٣٣١ ـ ٣٣٢).

«لما افتتح السلطان تلك الأماكن المذكورة فيما تقدّم، أمر العساكر فاجتمعت ثم سار نحو بيت المقدس، فنزل غربي بيت المقدس في الخامس عشر من رجب من هذه السنة ـ أعني: سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ـ فوجد البلد قد حُصّنت غاية التحصين، وكانوا ستين ألف مقاتل، دون بيت المقدس أو يزيدون، وكان صاحب القدس يومئذ رجلاً يُقال له بالبان بن بازران، ومعه من سلم من وقعة حطين يوم التقى الجمعان، من الداوية والاستثارية أتباع الشيطان، وعبدة الصلبان، فأقام السلطان بمنزله المذكور خمسة أيام، وسلم إلى كل طائفة من الجيش ناحية من السور وأبراجه، ثم تحوّل السلطان إلى ناحية الشام؛ لأنه رآها أوسع للمجال، والجلاد والنزال، وقاتل الفرنج دون البلد قتالاً هائلاً، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في نصرة دينهم وقمامتهم، واستشهد في الحصار بعض أمراء المسلمين، فحنق عند ذلك كثير من الأمراء والصالحين، واجتهدوا في القتال ونصب المناجنيق والعرادات[1] على البلد، وغنّت السيوف والرماح الخطيات، والعيون تنظر إلى الصلبان منصوبة فوق الجدران، وفوق قبّة الصخرة صليب كبير، فزاد ذلك أهل الإيمان حنقًا وشدة للتشمير، وكان ذلك يومًا عسيرًا على الكافرين غير يسير، فبادر السلطان بأصحابه إلى الزاوية الشرقية الشمالية من السور فنقبها وحشاها وأحرقها، فسقط ذلك الجانب، وخرّ البرج برمّته فإذا هو واجب[2] ، فلما شاهد الفرنج ذلك الحادث الفظيع، والخطب المؤلم الوجيع، قصد

(١) العرادات: آلات تستعمل في الحصار.
(٢) واجب: أي: ساقط.

أكابرهم السلطان، وتشفعوا إليه أن يعطيهم الأمان فامتنع من ذلك وقال: لا أفتحها إلا عنوة، كما افتتحتموها أنتم عنوة، ولا أترك بها أحدًا من النصارى إلا قتلته كما قتلتم أنتم من كان بها من المسلمين، فطلب صاحبها بالبان بن بازران الأمان ليحضر عنده فأمّنه، فلما حضر ترفّق للسلطان وذلّ ذلاً عظيمًا، وتشَفّع إليه بكل ما أمكنه فلم يجبه إلى الأمان لهم، فقالوا: إن لم تعطنا الأمان رجعنا فقتلنا كل أسير بأيدينا ـ وكانوا قريبًا من أربعة آلاف ـ وقتلنا ذرارينا وأولادنا ونساءنا، وخربنا الدور والأماكن الحسنة، وأحرقنا المتاع وأتلفنا ما بأيدينا من الأموال، وهدمنا قبة الصخرة وحرقنا ما نقدر عليه، ولا نبقي ممكنًا في إتلاف ما نقدر عليه، وبعد ذلك نخرج فنقاتل قتال الموت، ولا خير في حياتنا بعد ذلك، فلا يقتل واحد منا حتى يقتل أعدادًا منكم، فماذا ترتجي بعد هذا من الخير؟

فلما سمع السلطان أجاب إلى الصلح وأناب، على أن يبذل كل رجل منهم عن نفسه عشرة دنانير، وعن المرأة خمسة دنانير، وعن كل صغير وصغيرة دينارين، ومن عجز عن ذلك كان أسيرًا للمسلمين، وأن تكون الغلاّت والأسلحة والدور للمسلمين، وأنهم يتحوّلون منها إلى مأمنهم وهي مدينة صور، فكتب الصلح بذلك، وأنّ من لم يبذل ما شُرط عليه إلى أربعين يومًا فهو أسير، فكان جملة مَنْ أُسِر بهذا الشرط ستة عشر ألف أسير من رجال ونساء وولدان، ودخل السلطان والمسلمون البلد يوم الجمعة قبل وقت الصلاة بقليل، وذلك يوم السابع والعشرين من رجب، ولم يتفق للمسلمين صلاة الجمعة يومئذ خلافًا لمن زعم أنها

أُقيمت يومئذ، وأن السلطان خطب بنفسه بالسواد، والصحيح أن الجمعة لم يتمكنوا من إقامتها يومئذ لضيق الوقت، وإنما أُقيمت في الجمعة المقبلة، وكان الخطيب محيي الدين بن محمد بن علي القرشي ابن الزكي.

ولكن نظّفوا المسجد الأقصى مما كان فيه من الصلبان والرهبان والخنازير، وخُرِّبت دور الداوية وكانوا قد بنوها غربي المحراب الكبير، واتخذوا المحراب مشتًا لعنهم اللَّه، فنُظِّف من ذلك كله، وأُعيد إلى ما كان عليه في الأيام الإسلامية، وغُسلت الصخرة بالماء الطاهر، وأعيد غسلها بماء الورود والمسك الفاخر وأبرزت للناظرين وقد كانت مستورة مخبوءة عن الزائرين، ووُضع الصليب عن قبّتها وعادت إلى حرمتها، وقد كان الفرنج قلعوا منها قطعًا فباعوها من أهل البحور الجوّانية بزنتها ذهبًا، فتعذّر استعادة ما قُطع منها.

ثم قبض من الفرنج ما كانوا بذلوه عن أنفسهم من الأموال، وأطلق السلطان خلقًا منهم بنات الملوك بمن معهن من النساء والصبيان والرجال، ووقعت المسامحة في كثير منهم، وشفع في أناس كثير فعفا عنهم، وفرّق السلطان جميع ما قبض منهم من الذهب في العسكر، ولم يأخذ منه شيئًا مما يقتني ويدّخر، وكان ـ رحمه اللَّه ـ حليمًا كريمًا مقدامًا شجاعًا رحيمًا»[1].

* فتح القدس بقلم العماد:

❑ قال العماد ـ رحمه اللَّه ـ:

«رحل السلطان من عسقلان للقدس طالبًا، وبالعزم غالبًا، وللنصر

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير (١٢/ ٣٤٤ ـ ٣٤٦).

مُصاحبًا، ولذيل العِزِّ ساحبًا. والإسلام يخطُبُ من القُدْس عروسًا، ويَبْذُل لها في المَهرِ نفوسًا، ويحمل إليها نُعمى ليحمل عنها بُوسى، ويهدي بِشْرًا ليُذهبَ عُبوسًا، ويسمع صرخة الصَّخرة المستدعية المُستعدية لإعدائها على أعدائها، وإجابة دعائها وتلبية ندائها، وإطلاع زُهر المصابيح في سمائها، وإعادة الإيمان الغريب منها إلى وطنه، وردّه إلى سكونه وسكنه، وإقصاء الذين أقصاهم اللَّه تعالى بلعنته من الأقصى، وجَذْب قِياد فَتحه الذي استعصى، وإسكات الناقوس منه بإنطاق الأذان، وكَف كفِّ الكُفر عنه بأيمان الإيمان، وتطهيره من أنجاس تلك الأجناس، وأدناس أدنى النَّاس.

وطار الخبر إلى القدس، فطارت قلوب من به رُعبًا وطاشت، وخَفَقت أفئدتهم خوفًا من جيش الإسلام وجاشَتْ، وتمنَّتِ الفرنج لما شاعت الأخبار أنها ما عاشت، وكان به من مقدَّمي الفرنج باليان بن بارزان، وهو وملكهم في التَّسَلُّط سِيَّان، والبطرك الأعظم وهو الشَّاني العظيمُ الشَّان، والذين أغفلتهم حياطةُ حطين من الفرسان الداوية والاسبتارية والبارونية، من ذوي الكُفر والشَّنَآن، وقد حشروا وحشدوا، ونشروا ونشدوا، وحميت حَميَّتهُم، وأبت الضَّيْمَ أبيَّتهم، وحارت غيرتهم، وغارت خيرتهم، وتبلَّدوا وتلدَّدُوا، وقاموا وقعدوا، وصوَّبوا وصعَّدوا، فاشتغل بال باليان، واشتعل بالنيران، وخمدت نارُ بطر البطرك، وضاقت بالقوم منازِلُهم، فكأنَّ كل دارٍ منها شَرَكٌ للمُشرِك، وقاموا للتدبير في مقام الإدبار، وتقسَّمت أفكارَ الكفار، وأَيِسَ الفرنج من الفرج، وأجمعوا على بذل المُهج، وقالوا: ها هنا نطرح الرؤوس،

ونسبك النُّفوس، ونسفك الدِّماء، ونهلك الدَّهْماء، ونصبر على اقتراح القُروح، واجتراح الجروح، ونسمح بالأرواح شُحًّا بمحل الرُّوح، فهذه قُمامتنا[١]، فيها مقامتنا، ومنها تقوم قيامتُنا، وتصيح هامتنا، وتصحُّ نَدَامتنا، وتسيح علاَّمتنا، وتَسُحُّ غمامتنا، وبها غَرَامنا، وعليها غَرَامتنا، وبإكرامها كرامتنا، وبسلامتها سلامتنا، وباستقامتها استقامتنا، وفي استدامتها استدامتنا، وإن تخلَّينا عنها لزمت لآمَتُنا، ووجبت ملامتُنا، ففيها المصلب والمطلب، والمَذْبح والمقرب، والمجمع والمعبد، والمهبط والمصعد، والمَرقى والمرقب، والمشرب والملعب، والمموَّه والمُذهَب، والمطلع والمقطع، والمربى والمربع، والمُرَخَّم والمخرَّم، والمُحَلل والمُحرم، والصور والأشكال، والأنظار والأمثال، والأشباه والأشباح، والأعمدة والألواح، والأجسام والأرواح، وفيها صُوَر الحوارِيِّين في حِوارهم، والأحبار في أخبارهم، والرُّهابين في صوامعهم، والأقِسَّاء في مجامعهم، والسَّحَرة وحبالها، والكهنة وخيالها، ومثال السَّيِّدة والسيد، والهيكل والمولد، والمائدة والحوت، والمنعوت والمنحوت، والتلميذ والمعلِّم، والمهد والصَّبي المتكلِّم، وصورة الكبش والحمار، والجنَّة والنَّار، والنواقيس والنواميس.

قالوا: وفيها صُلِبَ المسيح، وقُرِّب الذَّبيح، وتجسَّد اللاهوت، وتألَّه النَّاسوت، واستقام التركيب، وقام الصليب، ونزل النور، وزال الدَّيجور، وازدوجت الطبيعة بالأُقْنُوم، وامتزج الموجود بالمعدوم، وعمدت معمودية المعبود، ومخضت البتول بالمولود، وأضافوا إلى

---

(١) القمامة من أعظم الكنائس في بيت المقدس. وتسمَّى أيضًا كنيسة القيامة.

متعبَّدهم من هذه الضلالات بما ضَلُّوا فيه بالشُّبَه عن نهج الدلالات، وقالوا: دون مقبرة ربنا نموت، وعلى خوف فوتها منا نفوت، وعنها ندافع، وعليها نقارع، وما لنا ألا نقاتل! وكيف لا ننازع ولا ننازل! ولأيِّ معنى نتركهم حتى يأخذوا، ونَدَعهم حتى يستخلصوا ما استخلصناه منهم ويستنقذوا؟!

وتأهبوا وتباهوا، وما انتهوا بل تناهوا، ونصبوا المجانيق على الأسوار، وستروا بظلمات السَّتائر وجوه الأنوار، واستشاطت شياطينُهم، وسَرَحت سراحينُهُمْ، وطَغت طواغيتهم، وأُصليت مصاليتهم، وهاج هائجهم، وماج مائجهم، وخضَّتهم قسوسُهم، وحرَّضتهم رؤوسهم، وحَرَّكتهم نفوسُهم، وجاءتهم بجوى السُّوء جواسيسهم.

ونصبوا على كل نيق[١] منجنيقًا، وحَفَروا في الخَندق حَفْرًا عميقًا، وشادوا في كل جانبٍ رُكنًا وثيقًا، وفرَّقوا على كل بُرجٍ فريقًا، وجعلوا إلى كل طارقٍ بالرَّدى للردِّ طريقًا، وأعادوا كل نهجٍ واسعٍ بما وعروه وعوَّروه به مضيقًا، وتحمل كلٌّ منهم ما لم يكن له من قَبْلُ مطيقًا، وخرج جماعةٌ منهم على سبيل اليَزَك[٢]، فأدلجوا ليلاً، واعترضوا عِدَّة من أصحابنا غارَّةً، على طريق السلامة مارَّةً، وكان قد شذَّ من المقدمة المنصورة أميرٌ تقدم، وما تحرز ولا تحزَّم، وما ظن أن قُدَّامه من له جرأة الإقدام، ومن يعتقد أن رِبْحَ كُفْره خسارةُ الإسلام، وهو الأمير جمال الدين شروين بن حسن الزرزاري، فوقعوا عليه في موضعٍ

---

(١) النيق: أرفع موضع في الجبل. انظر «القاموس المحيط» (نوق).

(٢) اليزك: كلمة فارسية تعني: طلائع الجيش.

يُعرف بالقُبيبات، فاستُشهد ـ رحمه اللَّه ـ. ولما بلغ السلطان خبره ساءه وغَمَّه.

ثم أقبل بإقبال سلطانه وأبطال شجعانه، وأقيال أولاده وإخوانه، وأشبال مماليكه وغِلمانه، وكبار أمرائه وعظام أوليائه، وأصبح يسأل عن الأقصى، وطريقه الأدنى، وفريقه الأَسْنَى، ويذكُرُ ما يفتح اللَّه عليه بِحُسْنِ فتحه من الحُسْنَى، وقال: إن أُسعدنا من اللَّه على إخراج أعدائه من بيته المقدَّس فما أَسعدنا، وأي يدٍ له عندنا إذا أَيَّدَنا، وإنه مكث في أيدي الكُفر إحدى وتسعين سنة لم يتقبلِ اللَّهُ فيه من عابدٍ حسنة، ودامت هِمَمُ الملوكِ دونه متوسِّنة(١)، وخلتِ القرون عنه متخلية، وخلتِ الفرنج به متولية، فما ادَّخر اللَّه فضيلة فتحه إلا لآل أيوب، ليجمع لهم بالقَبول القُلوب.

وكيف لا يهتمُّ بافتتاح البيت المقدَّس والمسجد الأقصَى، المؤسس على التَّقوى، وهو مقامُ الأنبياء، وموقف الأولياء، ومعبد الأتقياء، ومَزَارُ أبدال الأرض وملائكة السماء، ومنه المحشر والمنشر، ويتوافد إليه من أولياء اللَّه بعد المَعشرِ المَعشَر، وفيه الصَّخرة التي صِينَتْ جدة أبهاجها من الإنهاج(٢)، ومنها مِنهاج المِعراج، ولها القُبة الشماء التي هي على رأسها كالتَّاج، وفيه ومض البارق ومَضى البُرَاق، وأضاءت ليلة الإسراء بحلول السراج المُنير فيه الآفاق.

ومن أبوابه باب الرَّحمة، الذي يستوجب داخله إلى الجنة بالدخول

(١) أي: نائمة.

(٢) الإنهاج: البلى، ومنه: نهج الثوب، بلى وخلق. انظر «لسان العرب» «نهج».

الخُلود، وفيه كرسي سليمان ومحراب داود، وفيه عين سُلوان التي تُمثل لواردها من الكوثر الحوض المورود، وهو أولُ القِبلتين، وثاني البَنِيَّتَيْنِ، وثالث الحرمين، وهو أحد المساجد الثلاثة التي جاء في الخبر النبوي أنها تُشدُّ إليها الرِّحال، وتعقد الرجاءَ بها الرِّجال. ولعل اللَّه يعيده بنا إلى أحسن صورة، كما شرفه بذكره مع أشرف خلقه في أول سورة، فقال عز من قائل: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا**﴾ [الإسراء: ١] وله فضائل ومناقب لا تُحصى، ومنه كان الإسراء، ولأرضه فُتِحَت السماء، وعنه تُؤثر أنباء الأنبياء وآلاء الأولياء، ومشاهد الشهداء، وكرامات الكُرماء، وعلامات العُلماء، وفيه مبارك المبارّ، ومسارحُ المسارّ، وصخرتها الطولى القبلة الأولى، ومنها تعالت القدم النبوية، وتوالت البركةُ العُلوية، وعندها صلَّى نبينا ﷺ بالنبيين، وصحِبَ الرُّوح الأمين، وصَعِدَ منها إلى أعلى عليين، وفيه محراب مريم عليها السلام، الذي قال اللَّه فيه: ﴿**كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ**﴾ [آل عمران: ٣٧]، ولنهاره التعبد، ولليله المحيا، وهو الذي أسسه داود، وأوصى ببنائه سُليمان، ولأجل إجلاله أنزل اللَّه سبحانه ﴿**سُبْحَانَ**﴾ وهو الذي افتتحه الفاروق، وافتتحت به سورة من الفُرْقان.

فما أجله وأعظمه، وأشرفه وأفخمه، وأعلاه وأجلاه، وأسماه وأسناه، وأيمن بركاته وأبرك ميامنه، وأحسن حالاته وأحلى محاسنه، وأزين مباهجه وأبهج مزاينه، وقد أظهر اللَّه طُوله وطَوْله بقوله: ﴿**الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ**﴾ وكم فيه من الآيات التي أراها اللَّه نَبيه، وجعل مسموعنا من فضائله مرئية، ووصف للسلطان من خصائصه ومزاياه، ما وثق على

استعادة آلائه مواثيقَه وألاياه[1]، وأقسم لا يبرح حتى يبر قَسمُه، ويُرفع بأعلاه عَلَمُه، وتخطو إلى زيارة موضع القدم النبوية قدمُه، ويصغي إلى صرخة الصخرة، وسار واثقًا بكمال النُّصرة.

نزول السُّلْطان على البيت المقدَّس وحَصْره وما كان من أمره

◻ **قال العماد**: نزل السلطان على غربي القُدس يوم الأحد خامس عشر رجب، وكان في القُدس حينئذٍ من الفرنج ستُّون ألف مقاتل من فارس وراجل، وسائف ونابل، فاستهدفوا للسهام، واستوقفوا للحِمَام، وقالوا: كل واحد منا بعشرين وكل عشرة بمئتين، ودون القيامة تقوم القيامة، ولحبِّ سلامتها تُقلى السلامة.

وأقام السلطان خمسة أيام يدور حول البلد، ويقسم على حصاره أهل الجَلَد، وأبصر في شماليه أرضًا رضيها للحصار، متَّسعة لمجال الأسماع والأبصار، ممكنةً للدنُوِّ من النقب إن صار من حَيِّز الأنصار. فانتقل إلى المنزل الشمالي يوم الجمعة العشرين من شهر رجب، فما أصبح يوم السبت إلا على منجنيقات قد نُصبت بلا نَصب، فدام القتالُ والنزال، وفرسانهم في كل يوم يباشرون دون الباشورة، أمام جموعهم المحصورة المحسورة المحشورة، ويبرزون ويُبارزون، ويطاعنون، ويحاجزون، والمطيعون للَّه عليهم يحملون، ومن دمائهم يَنهَلُون ويُنْهلون، كما قال اللَّه تعالى فيهم ﴿**يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ**

---

(١) ألايا: جمع مفردها الألوة: اليمين. انظر «لسان العرب» «ألا».

ويقتلون﴾ وممن استُشهد مبارزًا، ولم يشهد بينه وبين الجَنَّة حاجزًا، الأمير عز الدين عيسى بن مالك، كان أبوه صاحب قلعة جَعْبر، فإنه حاز بشهادته في المحشر المفخر، وأكثر ورود الموت إلى أن ورد الكَوثَر، وكان في كلِّ يوم يَفْرِسُ فوارس، ويَلقى ببشر وَجهه وجوه المَنُون العَوابس، فاغتمَّ المسلمون من صرعته، وهان عليهم إتلاف المُهَج بعد تلاف مُهجَته، فركبوا أكتاف الرَّهَج، حتى وصلوا إلى الخندق فخرقوه، وبدَّدوا جمعه وفرَّقوه، والتصقوا بالسُّور فنقبوه، وعَلَّقوه وحشوه وأحرقوه، وصدَّقوا وعد اللَّه في القتال لأعدائه فَصَدَقوه، ولما غضَّتهم الحرب، وقع السور واتسع النَّقب، فَصَعُبَ عليهم الهَيِّن وهان لنا الصعب، عقدوا ما بينهم مشورة، وقعدوا ما بينهم ضرورة، وقالوا: ما لنا إلا الاستئمان، فقد أخذ لنا بخطه الخِذلان والحِرمان. وأخرجوا كبراءهم ليؤخذ لهم الأمان، فأبى السلطان إلا قتالهم وتدميرهم واستئصالهم، وقال: ما آخذ القدس إلا كما أخذوه من المسلمين منذ إحدى وتسعين سنة، فإنَّهم استباحوا القتل، ولم يتركوا طَرْفًا يستزير سِنَة، فأنا أُفني رجالهم قتلاً، وأحوي نساءهم سبيًا. فبرز ابن بارزان ليأمن من السلطان بموثقه، وطلب الأمان لقومه، وتمنَّع السلطان، وتسامى في سَومه، وقال: لا أمن لكم ولا أمان، وما هوانا إلا أن نُديم لكم الهوان، وغدًا نملككم قَسرًا، ونوسعكم قتلاً وأسرًا، ونسفك من الرِّجال الدِّماء، ونسلط على الذُّرية والنساء السِّباء. وأبى في تأمينهم إلا الإباء، فتعرضوا للتضرُّع، وخَوَّفوا عاقبة التسرع، وقالوا: إذا أيسنا من أمانكم، وخفنا من سلطانكم، وخبنا من إحسانكم، وأيقنا أنه لا نجاة ولا نجاح، ولا صُلح ولا صلاح، ولا

سلم ولا سلامة، ولا نعمة ولا كرامة، فإنا نستقتلُ فنقاتل قتال الدم والندم، ونقابل الوجود بالعدم، ونلقي أنفسنا على النار، ولا نُلقي بأيدينا إلى التهلُكة والعار، ولا يجرح منا واحد حتى يجرح عشرة، وإنا نحرق الدُّور، ونخرب القُبَّة، ونترك عليكم في سبينا السُّبَّة، ونقلع الصَّخرة، ونوجدكم عليها الحسرة، وقُبَّة الصخرة نرميها وعين سُلوان نعميها، والمصانع نخسِفُها، والمطالع نَكسِفُها، وعندنا من المسلمين خمسة آلاف أسير، ما بين غنيٍّ وفقير، وكبير وصغير، فنبدأ بقتلهم، وشتٍّ شملهم، وأما الأموال فإنا نَعطبُها ولا نُعطيها، وأما الذراري فإنا نسارع إلى إعدامها ولا نستبطيها، فلا يحصل لكم سبيٌّ، ولا يُقبل لكم سعي، ولا يسلم عمر ولا عمارة، ولا نُضار ولا نضارة، ولا نساء ولا صبيان، ولا جماد ولا حيوان، فأيُّ فائدةٍ لكم في هذا الشُّح، وكل خُسرٍ لكم في هذا الربح، ورُبَّ خيبةٍ جاءت من رجاء النُّجْح، ولا يصلح السوء سوى الصُّلح. فشاور السلطان أصحابه، فقيل له: الصواب أن نحسبهم أُسارانا، فنبيعهم نفوسهم، ونعمِّم بصغار الجزية رؤوسهم، ويدخل في القطيعة مرؤوسهم ورئيسهم.

واستقر بعد مراودات ومعاودات، ومفاوضات وتفويضات، وضراعات من القوم وشفاعات، على قطيعة تُكمَّل بها الغبطة، ويحصل منها الحوطة، اشتروا بها منا أنفسهم وأموالهم، وخلَّصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم، على أنه من عجز بعد أربعين يومًا عما لزمه، أو امتنع منه وما سَلَّمه، ضُربَ عليه الرِّق، وثبت في تملكه لنا الحق، وهو عن كل رجل عشرة دنانير، وعن كل امرأة خمسة دنانير، وعن كل

صغـيرة أو صـغير ديناران، الذكر والأنثى في ذلك سـيَّان، ودخل ابن بارزان، والبطرك، ومقـدَّما الدَّاوية، والإسـبتار في هذا الضـمان، وبذل ابن بارزان ثلاثين ألف دينار عـن الفقـراء، وقـام بالأداء، ولم يَنكُل عن الوفاء، فمن سلم خرج من بيته آمنًا، ولم يعد إليه ساكنًا، وسلَّموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب على هذه القطيعة، وردُّوه بالرغم رد الغصب لا الوديـعة، وكان فـيه أكثـر من مائة ألف إنسـان من رجال ونساء وصبيان، فأغلقت دونهم الأبواب، ورُتِّب لعـرضهم واستخراجِ ما يلزمهم النواب، ووُكِّلَ بكل بابٍ أميـر ومقدَّمٌ كبير، يحـصر الخارجين، ويحصي الواجين، فمن اسـتخرج منه خرج، ومن لم يَقُمْ بما عليـه قعد في الحَبْس وعَدِمَ الفَرَج، ولو حُـفِظَ ذلك المال حقَّ حفظه، لفاز منه بيت المال بأوفـر حظه، لكنَّمـا تم التفـريط، وعمَّ التـخليط، فكلٌّ من رشـا مشى، وتـنكَّبَ الأُمناء نَهجَ الرُّشد بالرُّشـا، فمنهم من أُدلي مـن السور بالحبال، ومنهم من حُمل مـخـفيًّا في الرِّحال، ومنهم من غُيرت لبسته فخرج مخفيًّا في زِي الجُند، ومنهم من وقعت فيه شفاعةٌ مطاعة لم تقابل بالرد، والثقات الأكـابر استنابوا أصاغر، فـأقاموا في تقصـيرهم المعاذر، وقنوا لأنفسهم الذخائر، وادَّعى مُظفر الدين كُوكبُوري أن منهم جماعة من أرمن الرُّها، وعددها ألف نسمة، فجعل إليه أمرها، وكذلك صاحب البيرة ادَّعى بالعُـدَّة الكثيـرة زهاء خمـس مائة أرمني ذكـر أنهم من بلده، وأن الواصل منهم إلى القُدس لأجل متعبَّـده، وكذلك كل من استوهب عدة استطلقها، وحصل له مرفقها، ثم تولى الملك العادل استخراجهم، وقوَّم على الأداء منهـاجهم، وسـهل على السلطان لفرط جـوده الاسـتخراج والإخراج، وتوفر لعامة الناس وخاصتّهم ببهجة سماحه الابتهاج، وما فينا

إلا من فاز بأوفى نصيب، ورعى منه في مرعى خصيب.

وكان السلطان قد رتب عدة دواوين، في كل ديوانٍ منها عدة من النواب المصريين، وفيهم من الشاميين، فمن أخذ من أحد الدواوين خطًّا بالأداء، انطلق مع الطلقاء، بعد عرض خطه على من بالباب من الأُمناء والوكلاء، فذكر لي من لا أشك في مقاله أنه كان يحضر في الديوان، ويطلع على حاله، فربما كتبوا خطًّا لمن نَقْدُه في كيسهم، وتَلَبَّس أمر تلبيسهم، فكانوا شركاء بيت المال لا أُمناءه، وخانوه على ما حصل لكل من الغِنى والنفع وما أضر غناءه، ومع ذلك حصل لبيت المال ما يقارب مائة ألف دينار، وبقي من بقي تحت رق وإسار، ينتظر به انقضاء المُدة المضروبة، والعجز عن الوفاء بالقطيعة المطلوبة.

وكانت بالقُدس ملكة رومية متعبدة مترهبة، في عبادة الصليب متصلِّبة، وعلى مُصابها مُتلهِّبة، وفي التمسك بملتها متصعبة متعصبة، أنفاسها متصاعدة للحُزن، وعبراتها متحدرة تحدر القطراتِ من المُزن، ولها حال ومال ومتاع، وأشياء وأشياع وأتباع، فعاذت بالسلطان فأعاذها، ومن عليها وعلى كل من معها بالإفراج، وأذن في إخراج كل ما لها في الأكياس والأخراج، وأبقى عليها من مصوغات صُلبانها الذهبية المجوهرة ونفائسها، وكرائم خزائنها، فخرجت بجميع مالها وحالها، ونسائها ورجالها، وأسفاطها وأعدالها، والصناديق بأقفالها، وتبعها من لم يكن من أتباعها، فراحت فرحى، وإن كانت من شجنها قرحى.

وكذلك خرجت زوجة الملك المأسور كي، وهي ابنة الملك أماري،

وكانت مقيمة في جوار القدس مع مالها من الخول والخدم والجواري، فاستأذنت في الإلمام بزوجها، وكان بقيده مقيمًا في بُرج نابلس موكلاً به ليوم وَعدِ تسريحه، فأذن لها، فخلصت هي ومن تبعها، وأقامت عند زوجها.

وكذلك خرجت الإبرنساسة أم هنفري، وهي ابنة فليب وزوجة الإبرنس الذي سُفِك دمُه يوم حطين، وهي صاحبة الكرك والشوبك، وهي بنوابها محوطة، وبرأيها منوطة، فجاءت سائلة في ولدها العاني، فوعدت أنها إن سمحت بحِصنها سمح لها بابنها، ثم أُعفيت وأُطلقت وعُصِمت، واستحضر ابنها هنفري بن هنفري من دمشق إليها، وأقرَّ برؤيته عينيها، وسار معها من الأمراء والأمناء من يتسلم منهم تلك المعاقل، فخرجت فمضت إلى حصونها لتسلِّمها، فمانعها أهلها ودافعوها، وردوها ذليلة خائبة، فسكنت صور، واستودعت السلطان ابنها المأسور، ووعدها بإطلاقه إذا تسلم تلك الحصون.

ذكر يوم الفتح وبعض كتب البشائر إِلى البلاد

□ **قال العماد**: تسلم المسلمون البلد يوم الجمعة أوان وجوب صلاتها، وطلعت الرايات الناصرية على شرفاتها، وأُغلقت أبوابها لحفظ ناسها، في طلب القطيعة والتماسها، وضاق وقتُ الفريضة، وتعذر أداؤها. وللجمعة مقدمات وشروط لم يمكن استيفاؤها، وكان الأقصى لا سيما محرابه مشغولاً بالخنازير والخنا، مملوءًا بما أحدثوا من البنا، مسكونًا ممن كفر وغوىٰ، وضل وظلم وجنى، مغمورًا بالنجاسات التي

حَرَمُ علينا في تطهيره منها الونى، فوقع الاشتغال بالأهم الأنفع، والأتم والأنجح الأنجع، وهو حفظهم وضبطهم إلى أن يوجد شرطهم، ويؤخذ قسطهم.

وجلس السلطان بالمخيم ظاهر القدس للهناء، وللقاء الأكابر والأمراء، والمتصوفة والعلماء، وهو جالسٌ على هيئة التواضع وهيبة الوقار، بين الفقهاء وأهل العلم جلسائه الأبرار، ووجهه بنور البشر سافر، وأمله بعز النجح ظافر، وبابُه مفتوح، ورفده ممنوح، وحجابه مرفوع، وخطابه مسموع، ونشاطه مُقْبل، وبساطه مُقَبَّل، ومحياه يلوح، وريَّاه يفوح، قد جلت له حالة الظفر، وكأن دَسْتَه به هالة القمر، والقراء جلوسٌ يقرؤون ويرشدون، والشعراء وقوف ينشدون ويَنشدون، والأعلامُ تبرز لتنشر، والأقلام تُزْبر لتبشِّر، والعيونُ من فرط المسرة تدمع، والقلوب للفرح بالنصرة تخشع، والألسنةُ بالابتهال إلى اللَّه تضرع، وبُشر المسجد الحرام بخلاص المسجد الأقصى، وتلي ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ﴾ [الشورى: ١٣]، وهنئ الحجر الأسود بالصخرة البيضاء، ومنزل الوحي بمحل الإسراء، ومقر سيد المُرسلين وخاتم النبيين بمقر الرسل والأنبياء، ومقام إبراهيم بموضع قدم المصطفى ﷺ وعليهم أجمعين، وأدام أهل الإسلام بشرف بنيته مستمتعين. وتسامع الناس بهذا النصر الكريم، والفتح العظيم، فوفدوا للزيارة من كل فج عميق، وسلكوا إليه في كل طريق، وأحرموا من البيت المقدس إلى البيت العتيق، وتنزهوا من زهر كراماته في الروض الأنيق.

✍ وكتب العماد في ثاني يوم الفتح سبعين كتاب بشارة، كل كتاب

بمعنى بديع وعبارة، فمنها الكتاب إلى الديوان العزيز ببغداد افتتحه بهذه الآية: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور: ٥٥].

الحمد للَّه الذي أنجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف، وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك والخلاف، وخص سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة، ومكن دينه المرتضى، وبدل الأمن من المخافة، وذخر هذا الفتح الأسنى والنصر الأهنى للعصرْ الإمامي النبوي الناصري على يد الخادم؛ أخلص أوليائه، وأخص من اعتزازه باعتزائه إليه وانتمائه. وهذا الفتح العظيم والنُّجْح الكريم قد انقرض من الملوك الماضية، والقرون الخالية على حسرة تمنِّيه، وحيرة ترجيه، ووحشة اليأس من تسنِّيه، وتقاصرت عنه طوال الهمم، وتخاذلت عن الانتصار له أملاكُ الأمم، فالحمد للَّه الذي أعاد القُدُس إلى القُدْس، وأعاذه من الرجس، وحقق من فتح ما كان في النفس، وبدل وحشة الكفر فيه من الإسلام بالأنس، وجعل عز يومه ماحيًا ذل الأمس، وأسكنه الفقهاء والعلماء بعد الجُهال والضلال من البطرك والقس، وعبدة الصليب ومستقبلي الشمس، وقد أظهر اللَّه على المشركين الضالين جنوده المؤمنين العالمين، وقطع دابر القوم الظالمين، والحمد للَّه رب العالمين، فكأن اللَّه شرف هذه الأمة، وقال لهم: اعزموا على اقتناء هذه الفضيلة التي بها فضلكم، وحقق في حقهم امتثال أمره في قوله الكريم: ﴿ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المائدة: ٢١].

وهذا الفتح قد أقدره اللَّه على افتضاضه بالحرب العوان، وجعل

ملائكته المسومة له من أعز الأنصار وأظهر الأعوان، وأخرج يوم الجمعة من بيته المقدس أهل الأحد، وقمع من كان يقول: إن اللَّه ثالث ثلاثة بمن يقول: هو اللَّه أحد. وأعان اللَّه بإنزال الملائكة والروح، وأتى بهذا النصر الممنوح، الذي هو فتحُ الفتوح، وقد تعالى أن يحيط به وصف البليغ نظمًا ونثرًا، وعُبِدَ اللَّه في البيت المقدس سرًّا وجهرًا، وملكت بلاد الأردن وفلسطين غورًا ونجدًا، وبرًّا وبحرًا، ومُلئت إسلامًا، وكانت قد ملئت كفرًا، وتقاضى الخادم دَيْنَ الدين الذي غَلِقَ رهنه دهرًا، والحمد للَّه شكرًا، حمدًا يُجدد للإسلام كل يومٍ نصرًا، ويزيد وجوه أهله ببشرى فتوحه بشرًا، وأبى الخادم إلا استباحة أموالهم وأرواحهم، وحسم داء اجتراحهم باجتياحهم، وأنه لا بد من تطهير الأرض المقدسة برجس دمائهم، وقتل رجالهم وسبي ذراريهم ونسائهم، ولما أيسوا من النجاة، وفتح أبوابها المُرتجة من أسبابها المرتجاة، خوفوا بقتل الأسارى المسلمين، وهم أكثر من ثلاثة آلاف، وأنهم يفسدون جميع ما في البلد من مالٍ وبناء بهدمٍ وإحراق وإتلاف، وعُرِفَ أن جهلهم يحملهم على كل نُكرٍ شنيع، وأنهم تدعوهم فظاظتهم إلى كل ضرٍّ فظيع، وبذلوا إطلاق الأسرى، وشرطوا حمل مال الفدا، وما زالوا يبتهلون ويضرعون، ويذلون ويخشعون، حتى استقر الأمر أنهم يُفادون، وأجيبت الصخرة المقدسة عند استصراخها، وبركت البركة الناهضة إليها في مناخها، وغسلت من أوضارها وأوزارها بعبرات العيون، ورجع اضطرابها إلى السكون، وفديت بنواظر أهل الإيمان، وصوفحت للوفاء بعهدها المجدد بالإيمان، وذكرت في يوم خلاصها من رجب بليلة المعراج، وتجلى

إظلامها بإنارة سنا السراج، وأعيدت الكنائس مدارس، وأضحت بإحياء رميم التوحيد رسومُ الكفر عافيةً دوارس، وزالت ضجرة الصخرة، ونعَّشها اللَّه من العثرة، وبدل بالأنس فيها ما كان من الوحشة والحسرة، فالحمد للَّه على هذه النصرة، والمنَّة له على هذه المبرة.

وقد تسلمنا مع بيت المقدس جميع المعاقل من حد الداروم إلى حد طرابُلُس، وكل ما كان جاريًا في مملكة ملك القدس ونابلس، ولم يبق إلا صور، فإنها قد تأخر انتزاعها، وتقدم امتناعها، والفرنج فيها قد ضريت بآمالها أطماعُها، وهي بتأييد اللَّه مستفتحة، والقلوب بتذليل جامحها منشرحة.

* ومن كتب أُخَر: فُتِحَ بيتُ اللَّه المقدس الذي عجز الملوك عن تمنيه فكيف تسنِّيه؟ وماتتِ الأطماع دونه فلم تطمع فيه، فَمَنَّ اللَّه علينا بتذليل صعبه، وإعذاب شربه، وتسهيل وعره، وتحصيل فخره، وقضى الملوك في ليله، وجئنا نحن عند إسفار فجره. وقد كانت الصخرة مُستصرخة، ومطايا الكفر بكلاكلها عليها منوَّخة، فأُجيبت دعوتها، وأصينت حظوتها، وتناثرت على حَجَرها يواقيت الشفاه، وقوبلت قبلتها بِقُبَل الأفواه، ودنا المسجد الأقصى للقاصي والداني، وزال رين العائن وقرت عين الرائي.

هذا فتحٌ عظيمٌ قدره، جسيم فخره، فاضلٌ عصره، كاملٌ نصره، غير منسيٍّ إلى يوم الحشر ذكره، وقد افْتُض بنا بِكرُه، واقتُضي بسيفنا وترُه، وزهر زهره، وظهر قهره، وهلك الكافر وكفره، وجاء من نعم اللَّه ما لزم على الأبد شكره.

أبينا إلا إحراقهم بنيران الصوارم، وإغراقهم في أمواه الطلى والجماجم، وتسلمنا القدس في يوم كانت في مثل ليلته ليلة المعراج، وحنت الصخرة حنين جذع المعجزة الأولى في ظلمة ليلها إلى ذلك السراج الوهاج، والحمد للَّه على سلوك ما وضح من المنهاج، ونضوب ما كان نبع من الأجاج، وخلا بيت اللَّه لقصد الحاج، وصدق الحاج.

مبشرة بما فضل اللَّه به عصرنا، وعجل به نصرنا، ونظم به سلكنا، وطرز به مُلكنا، وهو فتحُ بيتِ اللَّه المقدس الذي غَلِقَ رهنه دهرًا، واغتُصبت من الإسلام قهرًا، وارتد كفرًا، وامتدت به الأيام عمرًا فعمرًا، وتقاصرت الهمم عن استفتاحه، وأصلد زَنْد[1] الملوك فيه فعجزوا عن اقتداحه، ونزلوا بالرغم على التماس الكفر واقتراحه، واحتملوا لحفظ مواضعهم نكاية اجترامه واجتراحه، فلا جرم أعده اللَّه لأيامنا، وذخره لمواسم اعتزامنا، وفتحه بنا إظهارًا لفضيلة هذه الأيام، وإيثارًا لما نحن نؤثره من إعلاء كلمة الإسلام، فأصرخنا الصخرة، وأهدينا إليها النصرة، ومكنا من قلبها وإن كان من الحجر المسرة.

وتسلمنا القدس يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وقضينا من حق هذا البيت ما وجب، وجاء القُدُس إلى القُدْس، وزال الرجس وذهب، وتولى فيه الإسلام وتولى عنه الكفر، عظم الأجر وفخُم الفخر، وطاب النشر وزاد البشر، ومُحي الرجس وثبت الطهر، وهلك المشرك، وذل البطرك، وأُقصي من المسجد الأقصى الساجد إلى الشمس، وتجلى الحق بنوره الكاشف لِلَّبسِ.

(١) أصلد الزند: صوت، ولم يور.

عـاد بيت اللَّه المقـدس إلى طهـارته، ونطق منه لسـان التـقـديس بعبارته، وتهلل وجه السعد بنضارته، وخصنا القدر في إتمام أمره بخطابه وإشـارته، وزادت الوجوه بشـرًا ببشـارته، وقـد أعاد اللَّه إلى الإسـلام المسجد الأقصى، وملكنا أدناه وأقصـاه، وأسنى دولتنا بما سناه من فتحه وهناه، وعلموا أنهم هالكون، وأنا لهم بالقهر مالكون، وفي سبيل القتل والأسر والسـبي سالكون، فخرجـوا يطلبون الأمان، ويبـذلون الإذعان، حتى يسلـموا المكان، فقـيل لهم: الآن وقد عـصيتم، ورضـيتم بما فـيه هلاكهم وأبيتم، فروعـوا بقتل أُسارى المسلمين وهم ألوف، وعرفنا أنهم لا يقصرون عن شرٍّ، فإن جهلهم معروف. فـتضرعوا وتشافعوا وتعفروا في تراب الذُّل ووقعوا، وتقرر عليهم مال اشتروا به أنفسهم، فنزعوا به من الخوف ملبـسهم، وسلمـوا القدس، فـأعدناه إلى القدس، وطـهرناه من الرجس، وأجبنا دعوة الصخرة، وغسلنا عنها وضر الكفر بعبرات العبرة.

فُتحَ بيتُ اللَّه المقدس، الذي غَلِـقَ رهنُه، وطال في يد الكفر أسره وسجنه، واسـتهل بغـر أيامنا مُزنه، وأنار يمنه، وعـاد بإحسانـنا حُسنه، وزال بنا خوفه وزاد أمنه، وبقي قريب مائـة سنة في يد الكفر مسجونًا، وبرجس الشرك مشحونًا، حتى أعاد اللَّه بنا رونقه، وأذهب قلقه، وأعدم فرقهُ.

وهذا فـتحٌ لم يكن منذ عـصـرِ الصـحابة - رضـي اللَّه عنهم - له نظيـر، وأُفُقُ الدين به منيفٌ منيـر، وشرف أيامنـا به كبـير، وهو إمـام فتوحنا المُدخرة لنا، وما لها بتأييد اللَّه تأخير.

فُتحَ البيت المقدس الذي لم يخطر تمنيه بخاطر الملوك، وتوعر على

عزائمهم نهجُ طريقه المسلوك، وحالت دونه قنطاريات الفرنج وطوارقُها، وجنت على الإسلام فيه حوادثُ الليالي وطوارقُها، حتى دعانا اللَّه لفتحه فأجبناه، ووعدنا بالفوز فأصبناه، وأوردنا مشرع صفائه فاستعذبناه، وعرفنا طيب عرفه فاستطبناه، وذخَر لعصرنا هذا الفتح فاستقبلناه.

رأوا أحجار المنجنيقات قد أنزلتِ الأسواء بالأسوار، وغارَتِ الصخور للصخرة المباركة فجدت في إنقاذها من الإسار، وهتمت ثنايا الأبراج، وأعضل بها في العلاج داءُ الأعلاج، فعاينوا الحمام، وشاهدوا الموت الزؤام.

أقامت المنجنيقات على حصانته جد الرجم، وواقعت ثنايا شرُفاته بالهتم، وتطايرت الصخور من نصرة الصخرة المباركة، وحجرت على حكم السور بسفه الأحجار المتداركة، وحسرت النُّقوبُ عن عروسِ البلد نُقُبَ الأسوار، وانكشفت للعيون انكشاف الأسرار.

نَهَضَتْ لإصراخ الصخرة المقدسة الصخور، وطارت من أوكار المجانيق كأنها الصقور، ما أسر البيت الحرام بفكاك أخيه من الأسر، وإجراء ماء الإسلام فيه لغسل أوضار الكُفر، وإنقاذ الصخرة المباركة ممن قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة، وإلحافها من البهاء والرونق والعز الإسلامي كسوة، ولقد غُسِلَتْ من أدران الكفر وأدناسه، وطُهرت من أرجاس أنجاسه، بمياه العيون التي بها قذيت، وصُقلت بشفاه المؤمنين وطالما بأيدي الكفر صديت، وأعيد إليها ذكرُ اللَّه تعالى بعد طول الغُربة، وتذكرت بصحبة الأولياء ما سلف لها في عهد الصحابة ـ رضي

اللَّه عنهم ـ من حُسنِ الصحبة، ودنا المسجد الأقصى فأُقصي منه الساجد للشمس، وسكن العلماء والفقهاء في مواطن البطرك والقس، وأُبدل الناقوس بالأذان، بل الكفر بالإيمان، وصلى محرابُ[1] الإسلام في المحراب الذي أسلم، وقد سنّى اللَّه تعالى هذا الفتح الأعظم، والنُّجح الأفخم.

وقد نُدِبَ فلان في الرسالة القُدسية، والبشارة العُرسية، التي تم بها مأتم الكفر وعُرس الإسلام، وعاد بها المسجد الأقصى إلى مداناة المسجد الحرام، وتجلت عروس الصخرة لعيون الناظرين، وفاضت عليها مياه أحداق الأولياء، فَرَحَضَت[2] عنها أوضار الكافرين، وكان الإسلام منه غريب فرجع إلى وطنه، وسكن منه إلى التوطن في مسكنه، وزالت مخاوفه وعاد إلى مأمنه، وفاض العرف من منبعه، وأنار التوحيد من مطلعه، وعلا سنا السنة، وحلا جنى الجنة، وخلصت مواضع المُخلصين من أولياء الأمة، وخرج البطاركة والقسيسون من مساجد الأئمة، وعادت الكنائس مدارس، وآيات التثليث بها دوارس، ووجوه أهل الإيمان باشرة، ووجوه أهل الصليب عوابس، ومحت أيامنُ هذه الأيام تلك الليالي الدوامس، وقد أقيمت الجُمَع والجماعات، ونُظفت بل طهرت تلك الساحات، وصلى محرابه المحرب، ودرس فيه الخلافَ والمذهب، فالحمد للَّه الذي تسنى بفضله هذا المطلب، وتيسر بتأييده الأمر الأصعب.

* **قال العماد**: وكان المولى الأجل الفاضل متأخرًا بدمشق لعارضٍ مَنَّ

(١) المحراب والمحرب: الشديد الحرب، والشجاع، ويعني به صلاح الدين. «القاموس المحيط» (حرب).

(٢) رحضت: أي: غسلت. انظر «القاموس المحيط» (رحض).

اللَّه بشفائه، فمن جملة ما كتب السلطان إليه: أما الفتح فمن جُملة بركات همته، وآثار جذبت عزمته، فإن اللَّه تعالى سهل ما سجل أهل الدهر بأنه صعب، وأهب نسيم النصر إبان يقال ليس له مهب، وخصنا بهذا الشرف، وألحقنا في هذه الفضيلة بصالحي السلف، وقد بُدل الكفر بالإيمان، والناقوس بالأذان. وجلس العلماء والفقهاء في مجالس الرهبان، وفتحت بهذا الفتح من بيت اللَّه المقدس أبواب الجنان، وتزاحَمَ الخارجون من البلد من الفرنج والنصارى في دخول أبواب النيران، وصلى محارب الدين في المحراب، ورفع الملائكة ما كان تكاثف بأنفاس الكفر من الحجاب، وغُسِلَتِ الصخرة المباركة من أوضارها بماء العيون، الفائض الفائق غزارة الأمواه، وقُبلت بالشفاه وبوشرت بالأفواه، وطهرت بأهل العلم والحلم من أدناس أهل الجهل والسفاه.

والحمد للَّه ثم الحمد للَّه، وما كان يعوزنا ويعوزه إلا حُضور المجلس السامي أسماه اللَّه، فما لهذا الأمر رُواء إلا برُوائه، ولا للأنس لقاء إلا بأنس لقائه، وكاد يُصحف الفتحُ لولا صالح دعائه، وحسن آلائه.

والحمد للَّه الذي خصنا بهذه الخاصية، وفضلنا بالنصرة القدسية، وذخر لنا هذا البر الذي عجز بل قصر عنه ملوك البرية.

والحمد للَّه على هذه النعمة السنية، فما أشوقنا وأشوق القدس إلى قدومه، وما أظمأنا وأظمأه إلى خُصوص الري به وعمومه، ويا حظ هذا البيت الذي هو أخو البيت الحرام من زيارته، وما آنق روضه وأوفق رضاه إذا فاز بنظره ونضارته، ونحن نعرف أن همته العالية تحدوه، وأن دينه إلى إجابة دعوته تدعوه، ونسأل اللَّه تعالى أن يكمل صحته،

ويُنعشَ نهضته، ويقوي قوته، ومـا أقمنا بهذا البلد إلا لتطهيره، وترتيب أمره وتدبيره.

* **ومن كُتُبٍ أُخَرَ**: نصرنا اللَّه بملائكته المسومين، وأوليائه المؤمنين. واستخلصنا بتأييده البلاد وانتزعناها، واقتضضنا بالبِيض الذكور من الحرب العوان أبكارَ الفُتوح وافترعناها، وهذه موهبةٌ مُذْهِبة، ومنقبةٌ لا تبلغ إلى وصفها بلاغة موجزة ولا مُسهبة، ونوبة ما للإسلام بعدها نبوة، وحظوة في مذاق أهل التقوى والمغبرة حلوة، وبُشرى تجلو الوجوه ببشرها، وتضوع مهاب المحاب بنشرها، ويُغرقُ أهل الشرق والغرب سِجالُ غربها، وتقر عين المؤمنين في البعد والقرب بأنوار قربها.

عاد التقديس إلى الأرض التي به وصفت، وأحاطت البركة بالبقعة التي بقوله تعالى: ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ عُرفت، وظهرتِ الصخرة المقدسة وطُهرت، وزُهيت أيامن هذه الأيام وزهرت، وقُمعت الطائفة الباغية من أهل التثليث بأهل التوحيد وقُهرت، واستبشر المحراب والمنبر بخطبته وإمامه، وافتخر الزمان بعصر مولانا أمير المؤمنين وأيامه، وقد تملكنا البلاد الساحلية وتسلمناها حصنًا حصنًا، ونقضنا من الكفر ركنًا ركنًا، وأجلينا الكفار منها فاجتلينا بها من الحسنى حُسنًا.

فتحٌ شرَّف اللَّه به هذه الأُمة، وجلا به الغُمة، وكشف المُلمة، بل شرفنا بفخره، وأعدنا لذُخره، وخصنا بفضيلته في عصره، وأجرى لنا ما كان قد أبطأ من عادة نصره، وقمع بأهل دينه من عساكرنا أهل كُفره، وقامت بواترُنا بِوَتْرِه[1]، وعرق البلاد الساحلية من دم الكفر ببحره،

(١) بواتر جمع، ومفردها: باتر وهو السيف القاطع. والوتر: القتل.

وأصرخت الصخرة، وحفت بها النُّصرة، وزالت عنها المضرة، وعادت إليها المبرة، ونُعشت منها العثرة، وفاضت لها من عين المؤمنين العبرة، وزُفت عروسها البكر محصنة لم تُقتض منها العُذرة، وحالت العُرَّة(١) ولاحتِ الغُرة، وظهرت من صدف قُبتها الدرة، وصُوفحت آثار القدم النبوية بالأيمان، وجُددت بعدها صفقة الإيمان، وبطل الناقوسُ بحق الأذان، وفُتحت أبواب الجنان لأهلها، وأُخرج منها أهل النيران، والحمد للَّه على هذا الإحسان حمدًا مستمرًّا على مر الزمان.

ومن كتاب إلى سيف الإسلام باليمن: الفتح الأكبر والنجح الأزهر، والنصر الأشهر والعصر الأبهر، والفضل الأكثر، والإفضال الأوفر واليوم الأنور واليمن الأنضر والفجر الأسفر والفخر الأظهر... هو الفتح الذي تفوح بمحابه مهاب الفتوح وتبوح بسر روحه وملكه سرائر الملائكة والروح، وتروح وتغدو عوادي النعم وروائحها إلى روض الهدى المروح، وتلوح تباشير بشراه في لوح الدهر لكل مؤمن يتلقاها بالوجه السافر الصدر المشروح، وتنوح ناعية الكفر في كل ناحية، ولكل نادبة للأنس على قتيلها القلب المقروح، فُتح بيت اللَّه المقدس الذي غَلِقَ نيفًا وتسعين سنةً مع الكفر رهنُه، وطال في أسره سجنه، واستحكم وهنُه، وقوي نكره، وضعف ركنه، وزاد حزنه، وزال حُسنه، وأجدبت من الهُدَى أرضه وأخلف مُزنه، وواصله خوفه وفارقه أمنه، واشتغل خاطرُ الإسلام بسببه وساء ظنه، وذكرَ فيه الواحدُ الأحد الذي تعالى عن

(١) حالت: زالت. والعُرَّة: الجرب، والقذر. انظر «اللسان» (حول، عرر).

الولد أن المسيح ابنه، وربُع فيه التثليث فعز صليبه وصُلبه، وأفرد عنه التوحيد فكاد يهي متنه، ودرج الملوك المتقدمون على تمنّي استنقاذه، فأبى الشيطان غير استيلائه واستحواذه، وكان في الغيب الإلهي أن معاده في الآخرة إلى معاذه، وطنت أوطانه بقراءة القرآن ورواية الحديث وذكر الدروس، وجُليت الصخرةُ المقدسة جلوة العروس، وزارها شهر رمضان مضيفًا لها، نهارُ صومها بالتسبيح، وليلُ فِطرها بالتراويح.

* ومن كتبٍ أخر: البيتُ المقدَّس صار مقدَّسًا، وأصبح للإسلام مُعَرَّسًا، ورجع أهلُ التَقْوى إليه فقد كان بها مُؤَسَّسًا، وخَرِسَ الجَرَس، وذَهَبَ الدَّنس، وبَطَلَ النَّاقوس، وخرج القُسوس، وزال الأذى بالأذان، وصُوفحت الصَّخْرة المقدَّسة بأيمان أهل الإيمان، وما صلَّت في محراب البيت المقدَّس التُّقاة، حتى صلَّت في محاريب رقاب الكُفْرِ المَشْرَفيَّات، وما تمَّ الرِّضى بفتح المسجد الأقصى حتى أُقصي منه من أقصاه اللَّه عن رضاه، وما تَبَوَّأ المسلم المُصَلِّي فيه مثواه من الجَنَّة حتى تبوأَ الكافر المُصْلَى بالنَّار مثواه.

صُوفح موضِعُ القَدَم المباركة ليلةَ المِعْراج بالأيدي، وقال لأولياء اللَّه أهل الإخلاص: أهلاً بكم فما أحسن الخلاص من ولاية أهل التَّعَدِّي، وعاد المسجد الأقصى للمصلِّين المُقَرَّبين جَنَّةً ومنارًا، بعد أن كان للْمُقْصَيْن المُضَلِّين نارًا ودارًا، وتسلَّم مِحْرَبُ الإسلام مِحْرَابه، وأصبحت لأُلاَّفه لما ألفى أصحابه، وترنَّح المنبر لِتَرنُّمِ الخطيب، وانجبر الدِّين بانكسار صُلْب عابد الصَّليب السَّليب.

خلا بالُه من أمر القُدْس بإعادته إلى قُدُسه، وإخلائه من رِجْزِ

الشِّرْك ورِجْسه، وإجلاء داويِّه واسبتاره وبطركه وقَسِّه، وتعويضه من وحشة الضَّلالة من الهدى بأُنسه، ورَدِّ الإسلام الغريب إلى بيته المقدَّس، ونَفْي الكافر من كاسِفَ البال راغمَ المَعْطس، ونصب المنبر بالمسجد الأقصى لإقامة الخطبة الإمامية، ورَفْعِ ما رُفِعَ قَدْرُه من الأعلام العَبَّاسية، والإفراج عن محرابه بهدم ما بني دونه من مباني الشِّرْك، وكَشْفِ أستار الكَفَرَة التي حَجَبَتْ بالهَتْك والفَتْك، وإقامة الجُمَع فيه والجماعات، وإدامة أوراد العبادات به ووظائف الطَّاعات، وغسل الصَّخْرة المقدَّسة بدم الكافر ودمع المؤمن، ونزع لباس بأس المسيء عنها بإفاضة ثَوْبِ ثَوَاب المُحْسِنِ، وتنزيه تلك الجَنَّة من دَنَسِ أهل النَّار، وإعلاء ما كان دَرَس من معالم الأبرار ومطالع الأنوار.

وقد رجع الإسلام الغريب منه إلى داره، وخرج قَمَرُ الهُدَى به من سِراره، وذَهَبَتْ ظُلَمُ الضَّلالة بأنواره، وعادت الأرضُ المقدَّسة إلى ما كانت موصوفه به من التقديس، وأُمنت المخاوف فيها وبها فصارت صباح السُّرى ومناخ التَّعْريس، وقد أُقصي عن المسجد الأقصى الأقصون من اللَّه الأبعدون، وتوافى إليه المُصْطَفُون الأقربون والملائكة المقرَّبون، وخَرِسَ النَّاقوس بِزَجَلِ[1] المسبِّحين، وخرج المفسدون بدخول المُصْلحين، وقال المحراب لأهله: مرحبًا وأهلاً، وشَمِلَ جماعة المسلمين من إقامة الجمعة والجماعة ما جمع للإسلام فيه شَمْلاً، ورُفِعَت الأعلام العَبَّاسيَّة على منبره، فأخذت من بِرِّه أوفى نصيب، وتَلَتْ بألسنة عَذَبها ﴿**نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ**﴾ وغُسِلت الصخرة المباركة بدموع المتقين من دَنَسِ

(١) الزَّجَل: رفْع الصوت.

المُشْركين. وبَعُدَ أهل الأحد من قُرْبها بقُـرْب المُوَحِّدين، فذكر بها ما كاد يُنْسى من عَـهْـد المِعْـراج النَّبـوي، وأقامت بدلائـلها براهين الإِعـجـاز المحمَّدي.

عاد الإِسلام بإسـلام البيت المقدس إلى تقديسـه، ورجع بُنْيانه من التقـوى إلى تأسيسـه، وزال ناموس ناقوسـه، وبَطَلَ بنصِّ النَّصر قـياسُ قَسِّـيسـه، وفُتِحَ باب الرَّحـمة لأهلها ودخلت فـيه الصَّـخْرَةُ لفَـضْلها، وباشرت الحياة بها مواضع سجودها، وصافحت أيدي الأولياء آثارَ القدم النَّبوية بتـجديد عهودها، وشُـهِدَ مقام المِعْراج ومـوطئ بُرَاقه، ورُئِي نُورُ الإِسلام ومَطْلعُ إشراقـه، ودنا المسجد الأقصى للرَّاكع والسَّاجـد، وامتلأ ذلك الفضاء بالأتقياء.

* **ومن كتاب فاضلي إلى بغداد**: تقلَّص ظِلُّ الكافر المبسوط، وصَدَقَ اللَّه أهلَ دينه، فلمـا وقع الشَّرْط وقع المشـروط، وجاء أمـر اللَّه وأُنوف أهل الشِّرْك راغمـة، وأدلجت السيوفُ والآجال نائمة، واسـتردَّ المسلمون تُراثًا كان عنهم آبقًـا، وظفروا يقظةً بما لم يصدِّقوا أنهم يظفـرون به طيفًا على النأي طارقًا.

* **ومنه في وصف نَقْب السُّور**: فأُخلي السُّورُ من السَّيَّارة، والحرب من النَّظَّارة، وأمكن النَّقَّاب أن يُسْـفِرَ للحرب النِّقابَ، وأن يعيـد الحَجَرَ إلى سيرته من التُراب، فتقدَّم إلى الصَّخْـر فمضغ سَرْدَه بأنياب معْولَه، وحَلَّ عُقَدَه بضـربه الأخرق الدَّالِّ على لطافَة أَنْمُله، وأسمع الصَّخـرة الشَّريفة حنينه فـاسـتغاثتـه إلى أن كادت تَـرِقُّ لمقتله، وتبـرَّأ بعضُ الحجـارة من

بعضٍ، وأَخَذَ الخرابُ عليها مَوْثِقًا فلن يَبْرَحَ الأَرْض.

* **ثم قال**: واستقرَّت على الأعلى أقدامُهم، وخَفَقَتْ على الأقصى أعلامُهم، وتلاقت على الصَّخْرة قُبَلُهم، وشُفيت بها وإن كانت صخرةً كما يُشْفى بالماء غُللهم، وملك الإسلام خُطَّةً كان عهدُه بها دمْنَةَ سُكَّان، فخدمها الكُفْرُ إلى أن صارت روضةَ جِنان، لا جَرَم أن اللَّه أخرجهم منها وأهبطهم، وأرضى أهلَ الحقِّ وأَسْخَطَهم. وأوعز الخادمُ بردِّ الأقصى إلى عهده المعهود، وأقام له من الأئمة من يوفيه ورْدَه المورود. وأُقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شعبان فكادت السماواتُ للسَّجُومِ[1] يَتَفَطَّرْنَ، والكواكبُ منها للطَّرَب يَنْتَثِرْن، ورُفِعَتُ إلى اللَّه كلمةُ التوحيد وكانت طريقُها مسدودة، وطَهُرَتْ قبورُ الأنبياء وكانت بالنَّجاسات مكدودة، وأُقيمت الخَمْس وكان التَّثْليث يُقْعِدها، وجَهَرَتِ الأَلْسُن باللَّه أكبر وكان سحر الكُفْر يَعْقِدُها، وجُهِرَ باسم أمير المؤمنين في وطنه الأَشْرف من المِنْبر، فَرُحِّبَ به ترحيبَ مَنْ بَرَّ بمن بَرَّ، وخَفَقَ علماه في حِفَافَيْه، فلو طار سروراً لطار بجناحيه. وكان الخادمُ لا يسعى سعيه إلا لهذه العُظْمى، ولا يُقاسي تلك البؤسى إلا رجاءَ هذه النُّعْمى، ولا يُحارب من يستظلمه إلا لتكون الكلمةُ مجموعةً فتكون كلمةُ اللَّه هي العليا، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعَرَض الأدنى من الدُّنيا، وكانت الألسن ربما سَلَقَته، فأنضج قلوبها بالاحتقار، وكانت الخواطر ربما غَلَتْ عليه مراجِلُها، فأطفأها بالاحتمال والاصطبار، ومن طلبَ خطيراً خاطَرَ، ومن رام صفقةً رابحةً جاسَرَ، ومن سما لأن يُجلِّي غمرةً غامَرَ.

---

(١) مِن انسجم الدمع: إذا سال وانصبَّ. انظر اللسان «سجم».

* **ووصف فيه يوم حطِّين فقال** : وكان اليومُ مشهودًا، وكانت الملائكةُ له شهودًا، وكان الصَّلِيب صارخًا وكان الإسلام مولودًا، وأُسرَ الملك وبيده أوثقُ وثائقه، وآكدُ وُصَلِه بالدِّين وعلائقه، وهو صليب الصَّلبوت، وقائد أهل الجبروت، ما دُهِموا قَطُّ بأمرٍ إلا وقام بين دهائهم يحرِّضهم؛ يبسط لهم باعَهُ، وكان مَدُّ اليدين في هذه الدَّفعة وَدَاعَه، لا جَرَمَ أنه يتهافتُ على ناره فَرَاشُهم، ويجتمع في ظِلِّ ظلامه خِشَاشُهُمْ، ويقاتلون تحت ذلك الصَّليب أَصْلَبَ قتال وأصدَقَه، ويرونَهُ ميثاقًا يبنون عليه أشدَّ عُقَدِ وأوثَقَه، ويعدُّونه سورًا تحفر حوافر الخيل خَنْدَقَه، ولم يُفْلت منهم معروفٌ إلا القومص، وكان ـ لعنه اللَّه ـ مليًّا يوم الظَّفر بالقتال، ومليًّا يوم الخذْلان بالاحتيال، فنجا ولكن كيف، وطار خوفًا من أن يَلْحَقه منْسَرُ الرُّمْح وجَنَاح السَّيْف، ثم أخذه اللَّه بعد أيامٍ بيده، وأهلكه لَمْوِعِدِه، وكان لعِدَّتهم فذلك، وانتقل من ملكِ الموت إلى مالك، وبعد الكسرة مَرَّ الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الرَّاية السوداءِ صبغًا البيضاء صُنعًا، الخافقة هي وقلوب أعدائها، العالية هي وعزائم أوليائها.



*** الشعر وفتح القدس :**

على مثل هذه الغايات النبيلة تُوقف القصائد، وفي دوحة الفتح الأعظم يحلو المديح.. مديح الرجل.. مديح البطل.. صلاح الدين :

مديحك أحلى في فمي من جنا المُنى ... ومن طعم برْد الماء عذبًا على الصَّدى
أسامر فيك الشعر مستمتعًا به ... فأبْسطُه بَسْط الخميلة في الندى
أوَدُّ لو أن البيت ألف قصيدةٍ ... وكلَّ قصيد ألفُ حِزبٍ تردَّدا
وكيف اقتصادٌ في مدائحِ يوسف ... وقد بذّ غايات السوابق في المدى[1]

◻ وقال الجلياني :

أبا المُظَفَّر أنت المُجْتَبى لهدى ... أُخرى الزَّمان على خُبْرٍ بِخُبْرَته
فلو رآك وقد حُزْتَ العُلا عمرٌ ... في قُلَّة التَّلِّ قَضَّى كُنْه عِبْرَته[2]
ولو رآك وأهلُ القُدْس في وَلَهٍ ... أبو عبيدةَ فدَّى[3] من مَسَرَّته
غداةَ جزُّوا النَّواصي في قُمامته ... وأعولوا بالتَّباكي حَوْلَ صَخْرَته
دارتْ بك المِلَّة الحُسْنى فنحن على ... عَهْدِ الصَّحابة في استمرارِ مرَّته
وأنت كاسْمِك صدِّيقٌ وصاحبُهُ الـ ... ـمَلْكُ المُظَفَّرُ سامٍ في مَبَرَّته
وفي السُّلالة عثمانٌ يؤيِّدُه ... عُلا عليٍّ على إيثار نُصْرَته
وكم لديك ذوي قُرْبى رقَوا شَرَفًا ... وكم بعيدٍ رأى الزُّلْفى بِهِجْرَته

---

(١) ديوان «المبشرات القدسيات» للجلياني ـ جمع د. عبد الجليل حسن عبد المهدي ـ دار البشير ص(١٤٤).

(٢) العبرة: العجب. «معجم متن اللغة» (٤/ ١١).

(٣) يعني يقال له: جعلت فداك. «القاموس المحيط» (فدي).

يُشَبَّه القُبْجُ[1] ما بين البُزَاة لَقًى | مَلْكَ الفِرَنْجِ أخيذًا[2] بين عِتْرَتِه
أَمَا رأيتَ معالي يوسف نُسقَتْ | حتى رَمَتْ كلَّ ذي مُلْك بِحَسْرَتِه
أضحى لِنَشْرِ الهُدَى في فَتْحِ مَنْهَجِهِ | وباتَ يطوي العِدَى في سَدِّ ثُغْرَتِه
واسْتَقْبَحَ الرِّجْس ممنوًّا بِمَشْهَدِه | فاستفتَح القُدْس محشوًّا بِزُمْرَتِه
لكنَّ بأس صلاح الدِّين أَذْهَلَهُمْ | بوقعةِ التَّلِّ واستَشْرى بسَوْرَتِه
تعيا الجوارِحُ والفُرْسانُ وهو على | بَدْءِ النَّشاط عَشِيًّا مِثْلَ بُكْرَتِه
يا فاتِحَ المَسْجِدِ الأقصى على بُهَمٍ[3] | وقانِصَ الجيشِ لا يُحْصى بِقَفْزَتِه
أَبْشِرْ بِمِلْكٍ كَظَهْرِ الشَّمْس مُطَّلع | على البسيطةِ فتَّاحٍ بنشرته
حتى يكونَ لهذا الدِّينِ ملحمةٌ | تحكي النُّبوةَ في أيام فَتْرَتِه

قصيدة فخر الكتاب أبي علي الحسن بن علي الجويني في فتح المقدس:

قال ـ رحمه الله ـ:

جُنْدُ السَّماءِ لهذا المَلْكِ أَعْوَانُ | مَنْ شَكَّ فيهم فهذا الفَتْحُ بُرهانُ
متى رأى النَّاس ما نحكيه في زَمَنٍ | وقد مَضَتْ قَبْلُ أزمان وأَزْمانُ
هذي الفُتوحُ فتوحُ الأنبياءِ وما | لها سوى الشُّكْرِ بالأفعال أثمانُ
أَضْحَتْ ملوكُ الفرنج الصِّيْد في يده | صَيدًا وما ضَعُفوا يومًا وما هانُوا
كم مَنْ فُحولِ ملوكٍ غُودروا وهُمُ | خَوفَ الفرنجةِ وِلدانٌ ونسوانُ

(١) القُبَجُ: ويسكن: الحَجَل. «معجم متن اللغة» (٤/ ٤٨٠).

(٢) أي: أسيرًا.

(٣) البهم جمع، مفردها بهمة: بالضم: الشجاع، وقيل: الفارس الذي لا يُدْرى من أين يؤتى له من شدة بأسه، وتأتي أيضًا بمعنى: الجيش. «اللسان» (بهم).

استصرخت بملكشاه طرابلس ... فخام عنها وصمّت منه آذانُ
هذا وكم ملكٍ من بعده نظر الـ ... ـإسلام يُطْوى ويُحوى وهو سكْرَانُ
تسعون عامًا بلادُ اللّه تصرخُ والـ ... ـإسلامُ نُصَّارُه صُمٌّ وعُميانُ
فالآنَ لبَّى صلاحُ الدِّين دعْوتَهُمْ ... بأمرِ مَنْ هو للمِعْوانِ مِعْوَانُ
للنَّاصرِ ادُّخِرَتْ هذي الفُتوحُ وما ... سَمَتْ لها هِمَمُ الأملاكِ مُذ كانوا
حَبَاه ذو العَرْشِ بالنَّصْرِ العزيز فقا ... ل النَّاس داودُ هذا أم سُليمانُ
في نصف شَهرٍ غدا للشِّرك مُصطلمًا ... فَطهِّرتْ منه أقطارٌ وبُلدانُ
فأين مَسلمةٌ عنها وإخوتهُ ... بل أين والدهم بل أين مَروانُ
وَعدٍّ عما سواه فالفرنجةُ لم ... يَبذُّهمْ من ملوكِ الأرضِ إنسانُ
لو أنَّ ذا الفَتحَ في عصرِ النبي لقد ... تَنزلتْ فيه آياتٌ وقُرآنُ
يا قُبحَ أَوجه عُبادِ الصليبِ وقد ... غدا يُبرقعها شُؤم وخِذلان
خَزَنتَ عند إله العَرشِ سائر ما ... مَلكتهُ وملوكُ الأرضِ خُزانُ
فاللَّه يُبقيك للإسلامِ تحرسُهُ ... من أن يُضامَ ويُلفى وهو حيرانُ
وهذه سَنةٌ أكرم بها سنةً ... فالكفر في سِنَةٍ والنَّصرُ يَقظانُ
يا جامعًا كلمةَ الإيمانِ قامعَ مَنْ ... معبودُه دونَ ربِّ العَرشِ صُلبانُ
إذا طَوَى اللّه ديوانَ العبادِ فما ... يُطوَى لأجرِ صلاحِ الدين ديوانُ

□ ولنقيب الأشراف بالديار المصرية النسّابة الجوّاني:

أتُرى مَنَامًا ما بعيني أَبصرُ ... القُدسُ يُفتحُ والفرنجةُ تُكسَرُ
وقُمامةٌ قُمت من الرِّجس الذي ... بزواله وزوالها يتطهرُ
ومَليكُهُم في القَيْدِ مصفودٌ ولم ... يُرَ قبلَ ذاك لهمْ مليكٌ يُؤسرُ

قد جاء نَصرُ اللَّه والفَتحُ الذي وُعدَ الرَّسُولُ فسبِّحوا واستغفرُوا
فُتِحَ الشَّام وطُهرَ القُدسُ الذي هو في القيامة للأنام المَحشرُ
من كان هذا فتحه لمحمد ماذا يُقالُ له وماذا يُذكرُ
يا يوسف الصديق أنت لِفتحها فاروقُها عُمرُ الإمامُ الأطهرُ
ولأنتَ عثمان الشريعة بعدَه ولأنتَ في نصرِ النُّبوَّة حَيدرُ
ملكٌ غدا الإسلامُ من عَجَبٍ به يختالُ والدنيا به تَتَبخترُ
نَثرٌ ونظمٌ طعنُهُ وضِرابُهُ فالرُّمحُ يَنظمُ والمهنَّد يَنثُرُ
حيث الرِّقابُ خواضِعٌ حيث العيو نُ خواشعٌ حيث الجباه تُعَفَّرُ
غاراتُهُ جُمَعٌ فإن خَطبت له فيها السيوفُ فكلٌّ هامٍ مِنبرُ
إذ لا ترى إلا طُلَى(١) بسنابكٍ تُحذَى نعالاً أو دماءً تُهدرُ
وصوافنًا تختار أن تطأ الثَّرى فَيصدُّها عنه طُلًى وسَنَوَّرُ(٢)
تمشي على جُثَثِ العدَى عُرجًا ولا عَرجٌ بها لكنها تَتَعثرُ

❑ **وقال أبو الحسين بن جُبير الأَنْدَلُسي:**

أَطلتْ على أُفقِكَ الزَّاهرِ سُعُودٌ من الفَلَك الدَّائرِ
فَأبشِر فإن رِقابَ العِدَى تُمدُّ إلى سَيفكَ الباتِرِ
وعما قريبٍ يَحلُّ الردى بكُندهِمُ النَّاكِثِ الغادرِ
وخِصبُ الورى يوم تسقي الثُّرى سحائبُ من دَمِها الهامرِ
وكم لك من فَتكةٍ فيهمُ حَكَت فتكَةَ الأسدِ الخادرِ

---

(١) الطُّلى جمع، مفردها الطُّلاة: وهي العنق. انظر «لسان العرب» (طلي).
(٢) السنور: جملة السلاح وخصّ بعضهم به الدروع. انظر «لسان العرب» (سنر).

كَسرتَ صَليبَهُمُ عَنوَةً فللَّه دَرُّكَ من كاسرِ
وغَيرت آثارَهُم كُلَّها فليس لها الدَّهْرَ من جابرِ
وأمضيتَ جدك في غَزوهم فَتَعسًا لِجَدِّهِمُ العاثِرِ
وأدبَرَ مُلكُهمُ بالشام وولَّى كأمْسِهِمُ الدَّابرِ
جنودُك بالرُّعبِ منصورةٌ فَناجِزْ متى شئتَ أو صابرِ
فكلُّهمُ غَرِقٌ هالك بتيَّار عَسكَرِكَ الذَّاخر
ثَأرتَ لدين الهُدَى في العِدَى فآثرك اللَّه مِنْ ثائرِ
وَقُمتَ بِنصرِ إله الوَرَى فَسَمَّاك بالملك النَّاصِرِ
وجاهَدْتَ مجتهداً صابراً فللَّه أَجرُكَ من صابِرِ
تبيت الملوكُ على فُرشهم وتَرفُلُ في الزَّرَدِ السَّابري
وتُؤثرُ جاهِدَ عَيشِ الجِهادِ على طِيبِ عَيشِهِمُ النَّاضِرِ
وتَسهرُ ليلك في حقِّ مَنْ سَيرضِيكَ في جَفنِك السَّاهر
فَتحتَ المقدس من أرضه فعادَتْ إلى وَصْفِها الطاهِرِ
وجِئتَ إلى قُدسه المُرتَضى فخلَّصْتَهُ من يَدِ الكافرِ
وأعلَيتَ فيه مَنارَ الهُدَى وأَحييتَ من رَسمِهِ الدَّاثِرِ
لكم ذَخَرَ اللَّه هذي الفتوح من الزَّمنِ الأول الغابرِ
وخَصَّك من بعد فاروقه بها لاصطناعك في الآخِرِ
محبَّتُكُم أُلقِيتْ في النُّفوس بذكرٍ لكم في الوَرَى طائرِ
فكم لهمُ عند ذكر الملوك لمثلك من مَثلٍ سائرِ

❀ ❀ ❀

❑ وقال أبو الحسن عليُّ بن محمد السَّاعاتي:

أعيًّا وقد عاينتمُ الآيةَ العُظمى | لأيةِ حالٍ تذخروا النَّثرَ والنَّظما
وقد ساغَ فَتْحُ القُدسِ في كلِّ منطقٍ | وشاعَ إلى أن أَسمعَ الأسلَ الصُّمَّا
حَبا مكَّةَ الحُسنى وَثَنى بيثربٍ | وأَطربَ ذياك الضريحَ وما ضمَّا
فَليتَ فَتى الخَطاب شاهدَ فَتحَها | فَيشهدَ أن السيفَ من يوسفٍ أَصمَى
وما كان إلا الداءُ أعيا دواؤه | وغَبْرُ الحُسامِ العَضبِ لا يُحسنُ الحَسما
وأصبح ثَغْرُ الدِّين جَذلانَ باسمًا | وألسنةُ الأغمادِ تُوسعُه لَثما
سَلُو الساحل المخشي عن سَطواته | فما كان إلا ساحلاً صادَفَ اليمَّا

❑ وله من قصيدةٍ أُخرى في السُّلْطان:

عَصفتْ به ريحُ الخُطوب زعازعًا | فلقينَ طَودًا لا تخفُّ أناتُهُ
هو منقذُ البيتِ المقدَّس بعدما | طالَتْ فما وَجدَ الشفاءَ شُكاتهُ
بيتٌ تأسَّس بالسُّكون وإنما | عند الزِّحافِ تَحركْت سكناتُهُ
أمشتِّتَ الأعداء وهي جحافلٌ | عن شَملِ دينٍ جُمعَت أشتاتُهُ
أُوتيتَ عَزمًا في الحروبِ مسدَّدًا | لا زَيغُه يُخشى ولا هَفَواتُهُ
أحسنتَ بالبيتِ العتيقِ ويَثربٍ | ولك الفعَالُ كثيرةٌ حَسناتُهُ
هذي سيوفُك مُحرماتٌ دونَهُ | لبكائهِنَّ تبسَّمَت حُجُرَاتُهُ

❑ وله من قصيدةٍ أُخرى:

هو الفاتحُ البيت المقدس بعدما | تحامته سادات الدُّنا ومَسودُها
فضيلةُ فَتحٍ كان ثاني خليفةٍ | من القوم مُبديها وأنت مُعيدُها

❀ ❀ ❀

□ وللعمادِ قصيدةٌ يهنئُ بها صلاحَ الدِّينِ بفتحِ القدسِ وهو مخيِّم عليه يقولُ فِيها :

رأيت صلاحَ الدين أَشرفَ من غدا وأَفضلَ من أضحى وأكرمَ من أَمسى
وقيل لنا في الأرضِ سبعةُ أَبحرٍ ولسنا نَرى إلا أناملَهُ الخَمسا
سَجيتُه الحُسنى وَشيمَتُه الرِّضا وبَطشتُه الكُبرَى وعِزتُهُ القسعا
فلا عَدمَت أيامُنا منه مَشرِقًا يُنير بما يولي ليالينَا الدُّمسا
جنودكَ أملاكُ السَّماءِ وَظنَّهُم عُدَاتُك جنَّ الأرضِ في الفَتك لا الإنسا
فلا يستحقُّ القُدْسَ غَيرُك في الوَرَى فأنتَ الذي مِنْ دونهم فَتَحَ القُدسا
ومن قَبلِ فَتحِ القُدسِ كنتَ مقدَّسًا فلا عَدمَت أخلاقُك الطُّهرَ والقُدْسا
وَطَهرتَهُ من رِجسِهم بدمائهم فأذهبتَ بالرجسِ الذي ذَهبَ الرِّجْسا
نَزَعتَ لباسَ الكفرِ عن قُدسِ أرضِها وأَلبستَها الدين الذي كَشف اللَّبسا
وعادَتْ ببيتِ اللَّه أحكامُ دينه فلا بطركًا أبقيتَ فيها ولا قسا
وقد شاعَ في الآفاقِ عنك بِشَارةٌ بأن أذانَ القُدسِ قد بَطل النَّقسا
جَرَى بالذي تهوى القضاءُ وظَاهَرت ملائكةُ الرحمن أجنادَك الحُمْسا[1]
وكم لبني أيوبَ عَبدٌ كَعَنتَرٍ فإن ذُكروا بالبأس لا يذكروا عَبْسا
وقد طاب رَيَّانا على طَبريَّةٍ فيا طِيبَها مغنًى ويا حُسنها مَرسى
وعكًّا وما عكًّا فقد كانَ فَتحُها لإجلائهم عن مُدنِ ساحلهم كَنسا
وصيدا وبيروت وتِبنين كلُّها بسيفك ألفى أنفُه الرَّغمَ والتَّعسا

(١) الحُمْس: جمع أحمس، وهو الشجاع، والمتشدد على نفسه في الدين.

ويافا وأرسُوف ويُبنَى وغَـزَّةٌ تَخذتَ بها بين الطُّلى والظُّبَى عُرسا
وفي عَسقَلانَ الكُفرُ ذَل بملككمْ فَمَنظرُهُ بل أمرُهُ اربدَّ وارجَسَّا
وصارَ بصورٍ عُصبَةٌ يَرقُبونَكُمْ فلا تُبطئوا عنها وحُسُّوهمُ حَسَّا
توكَّل على اللَّه الذي لك أصبحَتْ كلاءتُهُ دِرعًا وعِصمَتُهُ تُرسا
ودَمِّر على الباقين واجتث أصلهُم فإنَّك قد صَيرتَ دينارهم فَلسا
ولا يَنسَ شِركَ الشَّرقِ غَربُك[1] مُرويًا بماء الطُّلى من صاديات الظُّبَى الخَمسا
وإن بلادَ الشرق مظلمةٌ فَخُذ خُرَسان والنَّهرين والتُّرك والفُرسا
وبعد الفرنج الكُرجَ فاقصدْ بلادَهُم بعزمك واملأ من دمائهمُ الرَّسَّا[2]
أقامتْ بغاب السَّاحلين أُسودُكم وقد طَرَدت عنه ذئابَهُمُ الطُّلسا

ولنَجْمِ الدِّين يوسفَ بنِ الحسينِ بنِ المُجاورِ قصيدةٌ:

الوَقتُ أضيقُ من سماعِ قصيدةٍ مَوسُومةٍ بصفات أَغيدَ أهيفِ
الجِدُّ في هذا الزمان مُبينٌ والهَزلُ فيه مع الغَواية مُختفِ
بالناصرِ المَهدِي والهادي إلى سُبُلِ الجهادِ أبي المُظفرِ يُوسُفِ
المستعينِ بربه والواثقِ الـ ـمنصورِ والمستظهرِ البرِّ الوَفي
شُدت قُوى أركان ملة أحمدٍ وَتَجَمَّلت بجهاده في المَوقفِ
ملكٌ إذا أَمَّ الملوكُ جَنابَهُ لاذوا بأكرمِ من يُؤمُّ وأشرَفِ
وإذا أَتَوا أَسرى إلى أبوابه وقَفُوا بأعظمِ من يَصُولُ وأرأفِ
مولى غدا للدِّين أكرمَ والدٍ حَدِبٍ على أبنائه مُتَرَفِّفِ

(١) الغرب: حدة السيف.
(٢) الرس: البئر.

عَـزَلَ الفـرنجـة ثم ولَّى جَيـشَـهُ   أعظِم به من صَارِفٍ ومُـصـرِّفِ
قد أنصَفَ التَّوحيدَ من تثليثهم   وأقامَ في الإنجيل حَدَ المُصحَفِ
مُـغـرًى بتـجـريح الرِّجـال لأنَّه   يَروي أحـاديثَ العَـوَالي الرُّعَّفِ
مَلِكٌ له في الحَرب بَحرُ تَفَقُّه   وله غَداةَ السلم زُهدُ تَصَوفِ
وعليه أُنزلَ في الجهاد مُفَصَّلٌ   فلذاك يقرؤه بسبعة أَحرُفِ
عَزمٌ وحِلمٌ أنسيا ما كان من   عَزمِ ابن مِرداسٍ وحِلمِ الأَحنَفِ
يا صاحِ قُل للإنكتير الكلب دَعْ   عَنك الجنونَ وَخُذْ مقالةَ مُنصِفِ
القُدسُ ما فيه لسرجكِ مطمعٌ   كـلا ولا نورُ الإلهِ بمنطفي
والمسجد الأقصى فعنه تقصَّ منْ   وَقع الدَّبابيس الأليمة تَعرِفِ
واستَفتِ نفسك فهي أخبثُ ناصحٍ   واترُك متابعةَ اللجَاجِ المُتلِفِ
واعجب لرُمحٍ بالرؤوس مُعمم   واطرَب لسيفٍ بالدِّماء مُغَلفِ
يا أيها الملكُ الذي لطباعه   وسيوفه خُلُقا رضى وتَعَسُّفِ
للَّه يوم عَرُوبة إذ أعرَبتْ   ساعاتُهُ عن نَصرِك المتعرِّفِ
سَنَّتْ سيوفُكَ في الرؤوس ختانةً   ذَهَبَت بمهجة كلِّ عِلجٍ أقلَفِ
آفاتهم وافَت بأخذك منهُمُ   يافا فكم من حَسرَةٍ وتأسُّفِ
أَوَما رأى الأعلاجُ حين دَعَوتَها   بلسانِ سَيفٍ في الكريهة مُلحفِ
لم تَستَطع عصيانَ أَمرك بل أَتَت   مُنقادةً طَوعًا ولم تَتَخَلفِ
فاستَدعِ جارَتَها وثَنِّ بأُختها   وكذاك حتى الأربعين وَنيفِ
ما للسواحل غيرُ بَحرِك حافظٌ   بشبا سنانٍ أو بصفحة مُرهَفِ
هذا الطرازُ الأخضرُ استَفتَحتَهُ   فَزها بثوبٍ من عُلاك مُسجفِ

أَحـيـيتَ دينَ مـحـمـدٍ وأقَـمـتَـهُ وسَـتَـرتَـهُ مِنْ بَعـدِ طُول تَكَشُّفِ
وَضَـبطتَ ديوانَ الجـهـادِ بعـاملٍ من عاملٍ وَبِمُشرفٍ من مَشرفي[1]
وبِجـهـبـذِ العَـزْمِ الـذي لا يَنْثَني وبـنـاظـرِ الرأي الـذي لـم يَـطـرِفِ
فَـخُـذِ الخَـراجَ من البـسيطةِ كلها واستَـأدِ فَـرضي جـزيَـةٍ ومـوظفِ
واقْـبِض على الدنـيـا بكـفٍّ زهادةٍ وابسُط لـرحـمـتـهـا جَنَاحَ تَعطفِ
جــاءت جنـودُ اللَّه تَطلُبُ ثأرَها وَصُـدُورُها بك عن قليلٍ تَشتَـفِي
فانهض بـهـا وتَقَـاضَ حَقَّك موقنًا أن الإلـه بمـا تـؤمِلُـه حَـــفِـي
هم فَـتـيَـةُ الأتراك كلُّ مُـجَـفـجِفٍ يَغشَى الكريهةَ فوقَ كل مُجفجَفِ
قـومٌ يخـوضُـون الحِـمامَ شـجـاعـةً لا يَنظُرون إليـه من طَرفٍ خَـفِي
إن صبَّـحـوا الأعـداءَ في أوطانهم تركـوا ديارَهُمُ كَـقـاعٍ صَـفـصَـفِ
أنتَ اصطَفَـيـتـهُم لِنُصـرَةِ ديننا لـلَّـه درُّ المُـصـطـفـى والمُـصطَـفِـي

وقال الرشيد بن بدر النابلسي[2] **في فتح القدس يمدح صلاح الدين ويهنئه بما أوتي من الفتوح:**

هذا الـذي كـانت الآمـال تَـنتظرُ فَلْيـــوفِ للَّه أقـــوامٌ بما نَـذروا
هذا الفـتـوحُ الذي جـاء الزمـانُ به إليـك من هفـوات الدهر يعـتـذرُ
تجلُّ عليـاه عن مـدحٍ يُحـيـط به وصـفٌ وإن نظم المدّاح أو نـثـروا
يا نعـمـةً كَـبـرت عند الأنام له قـدرًا فـفي كل شكر عندها صِغرُ

---

(١) العامـل: الرمح. المشرفي: السـيف ينسب إلى المشارف، من قـرى اليمن. انظـر «لسان العرب» (عمل ـ مشرف).
(٢) «عقد الجمان» للعيني ٢٥/ حوادث ٥٨٣هـ.

لا تروين لفتوح بعدها قصصًا وإن تَعاظم منها الخُبرُ والخَبَرُ

ومنها:

توضحَ الدهرُ عن يوم أغرَّ به تزهى وتفتخر الآصال والبُكَرُ
يومٌ تعالى محلاً واستنار سنًا فدون مرتبتيه الأنجمُ الزُّهُرُ
يومٌ به التأمَ الكفار في عدد جمٍ ولكن لكسر ليس ينجبرُ
فالروع متصلٌ والصبر منفصل والنقع مرتفع والنصر منحدر
جاءوا كما أقبلَ الطودُ الأشمُّ له من حيثُ ما سرت فيه مسلك وعر
وجئتهم مثل ما انقضّ القضاء فلا واللّه لم يُغنِهِمْ بأسٌ ولا وَزَر
بنفسِ حانٍ على الإسلام محتمل الـ آلام لم يُثْنِه خوفٌ ولا حَذَرُ
حُسنى إلى الخلق أهداها مليكهُمُ نُعمى من اللّه مرحومًا بها البشرُ
وعصبةٍ من بني أيوب كاشفة الـ ـكروب ساعة وجه النصر مستتر
مَدّوا كما مدّ فيضُ البحر ملتطم الـ أمواج حتى إذا قابلتهم جزروا
لقد فتحتَ عصيًّا من ثُغورهمُ لولاك ما هُدَّ من أركانها حَجَرُ
تركت أرضهم من طول ما عمرَت منهم بلاقعَ لا أُنثى ولا ذكرُ
نقضت ما أبرموا أبرمتَ ما نقضوا عمرت ما هدموا هدمتَ ما عمرُوا
بمثل ذا الفتح لا واللّه ما حكيت في سالف الدهر أخبار ولا سير
حين به حان هلك المشركين فيا للّه طيبَ العشايا منه والبكر
الآن قَرت جُنوبٌ في مضاجعها ونام من لم يزل حلفًا له السهرُ
الآن طاب إلى البيت المقدس كالـ بيت المحرّم إحرام ومعتمرُ

يا بهجة القدس إذ أضحى به علم الـ
إيمان من بعد طي وهو منتشر

يا نور مسجده الأقصى وقد رُفعت		بعد الصليب به الآيات والسُّورُ
شتّان ما بين ناقوس يُدان به		وبين ذي منطق يصغي له الحجرُ
اللّه أكبر صوتٌ تَقشعر له		شمُّ الذرى وتكاد الأرضُ تَنفطِرُ
يا مالك الأرض مهدها فما أحدٌ		سواك من قائم للهَدي يُنتظرُ
ما اخضرَّ هذا الطرازُ الساحلي ثمرا		إلا لتعلو به أعلامُك الصفرُ

أضحى بنو الأصفر الأنكاس موعظةً
فيها لأعدائك الآيات والنذرُ

صاروا حديثًا وكانوا قبلُ حادثةً		على الورى يتقيها البدو والحَضَرُ
سلبتهم دولة الدنيا وعيشتها		حتى لقد ضجرت من وفدهم سَقَرُ
هذا الذي سلب الإفرنج دولتهم		وملكهم يا ملوك الأرض فاعتبروا
مراكز ما اختطاها الخوف مذ مائة		عامًا ولا ريع أهلوها ولا ذعروا
ولا أُصرِّحْ بأسماء البلاد فقد		أسهبتُ والقائلُ المنطيق يختصرُ
هذا الإمام صلاح الدين أشرف مَنْ		به الممالكُ والأملاكُ تفتخرُ
دانتْ ودانتْ له الدنيا فما أحد		في الأرض إلا إلى نُعماك يفتقرُ
يا خاطبًا جنة الفردوس مُمهرَها		أجرِ الجيادَ لنعمَ الصِّهْرُ والمَهَرُ
يغنيك إجمال قولي عن مُفصَّلهِ		في لفظه البحر معنى تحته الدرر

❀ ❀ ❀

☐ وقال الدكتور عدنان النحوي في «ملحمة فلسطين»:

هذهِ القُدْسُ زينتها الليالي والفُتُوحَات والهَوَى المنشُودُ
يا صَلاحَ الدين العُهودُ رُؤاهَا حَاليِاتٌ وبشرياتٌ وَعيدُ
جَردِ السيف شُعلةً في الدياجي رب سيفٍ يُضيء منه الوجُودُ
أهدهَا حليةَ الفُتوح فَيزهو لُؤلُؤ عندَهَا وتَزهُو بُرُودٌ
واجعلِ النصرَ طَاعةَ اللّه بالحـ ـقِّ وَظلاًّ يأوي إليه الشَريدُ
عَلم الناسَ كيفَ تَهوي رؤوسُ الـ ـكُفرِ عَدلاً وكيفَ يَعفُو الشديدُ

❁ صلاح الدين وكتائب الإيمان يدخلون القدس ❁

يا «لبالبانَ» عندَ بَابكَ يَستجـ ـدي أَمَانًا وأنتَ عَنهُ تَحيدُ[1]
وَجُيوشُ الفِرنج يَسحقُهَا الذُّ لُّ وَيَطوي لِوَاءَهَا التَّشريدُ
نَسيَ المجرمُون أَيَّ دِماءٍ قَد أَصابوا وأي قومٍ أُبيدوا
فَأتوا في جُفونهم دَمعةُ الذُّ لّ، وفي دَمعهم رَجاءٌ وَحيدُ
جُد علينا، على الطفولة، بالعَفْـ ـو، حنَانيكَ أَنتَ، أنتَ الرشيدُ
حكمةٌ أَشرقت بِقلب صَلاحِ الـ ـدين، رأيٌ مِنَ الرَّشَادِ سَديدُ
المُروءاتُ في يَديك: فَعفوٌ مِنْ قَويٍّ وفديةٌ وحُدُودُ
فَارمِ بالسيفِ رَأسَ كل شقيٍّ غَادرٍ ظل في الديارِ يَكيدُ
وَهبِ العفو للضعافِ، ففي السَّا حَاتِ ناجٍ مُروعٌ وَفَقيدُ
واقَبلِ الفديةَ التي دَفعوها واحذَرِ الغَدْرَ منهمُ أن يَعُودُوا

---

(١) رئيس الصليبيين في القدس الذي ذل لصلاح الدين ذلاً عظيمًا طلبًا للأمان وفي البداية لم يجبه صلاح الدين ثم أجابه ورقّ صلاح الدين لأسرى المسلمين بالقدس.

كُل يَومٍ يُحطمـوا أَلفَ قَيـدٍ مَنْ جـميلٍ صَنَعتـهُ أو يَزيدُ
واجعل الهُدنةَ الرحيمةَ عَزمًا مِنْ قَـويٍّ يَأوي إِليـهِ الطَّرِيدُ
يا ليـومٍ أَغـرَّ في الدهر باقٍ لم يَزل منه عـزَّةٌ وصُعـودُ
وروابي الأقصَى نداءٌ وذكـرٌ والوَرَى فيه رُكعٌ وسُجودُ
الفُتُوحاتُ أَقبلت تَتوالى كي تَرى مجدَها لديكَ يَعودُ
شَرفُ الهُدنةِ الأبيَّة نَصرٌ عَبقريٌّ عَلى الزَّمَان جَديدُ
وفلسطينُ كلها زَهوةُ النَّصْـ ـرِ ودَارُ الإِسلام عُرسٌ وَعيدُ
والأعَادي شَرادمٌ وأَسارى وَجَبانٌ مُمزَّقٌ وشرَيدُ
يَهبُ الصلحَ سيدٌ حينَ يَعفُو وَهُوَ في زَهوة الإِباءِ يَجُودُ
وَذَليل تراهُ يَلهثُ خَلفَ الصُّـ ـلْح أَعيَتهُ حِيلةٌ وَجُهودُ

❑ **وقال أبو الحسن علي بن محمد الساعاتي يمدح الملك الناصر صلاح الدين:**

جَلَت عزماتك الفتح المبينا فقد قرَّتْ عيون المسلمينا
رَدَدتَ أخيذةَ الإِسلام لَّما غدا صَرفُ القضاء بها ضمينا
وهانَ بكَ الصليبُ وكان قدمًا يعزُّ على العوالي أن يهونا
يقاتلُ كلُّ ذي مُلكٍ رياءً وأنت تُقاتلُ الأعداء دينا
غَدَت في وجنة الأيام خالاً وفي جيد العلى عقداً ثمينًا
فيا للَّه كم سَرَّتْ قلوبًا ويا للَّه كم أبكت عيونا
وما طَبريةٌ إلا هَديٌّ تَرفَّعُ عن أكُفِّ اللامسينا
حَصانُ الذيل لم تُقذَف بسوءٍ وَسَل عنها الليالي والسنينا

فَضضتَ ختامها قسرًا ومن ذا يَصدُّ الليث أن يَلجَ العَرينا
لقد أنكَحتَها صمَّ العوالي فكان نتاجُها الحربَ الزَّبونا
هَناك نَدًى أهلَّ الأرضَ طُرًّا سواك ومعقل أعيا القرونا
قَستْ حتى رأت كفؤًا فلانت وغايةُ كلّ قاس أن يلينا
قَضيتَ فريضةَ الإسلام منها وصَدَّقتَ الأماني والظُّنونا
تَهُزُّ معاطفَ القدس ابتهاجًا وتُرضي عنك مكَّة والحجونا
فلو أن الجهادَ يُطيق نُطقًا لنادَتْكَ: ادخلوها آمنينا
جَعلتَ صباح آهلها ظلامًا وأبْدَلتَ الزئيرَ بها أنينا
تخالُ حَماةُ حوزتِها نساءً يخوضون الحديد مقنعينا
لبيضك في جَماجمهم غِناءٌ لذيذٌ علَّم الطيرَ الحنينا
تميلُ إلى المثقفة العَوالي فهل أمست رماحًا أم غصونًا
يكادُ النقعُ يُذهلُها فلولا بُروق القاضيات لما هُدينا
فكم حازت قُدود قَناك منها قدودًا كالقَنا لونًا ولينا
وغيد كالجآذر آنساتٍ كغيد نَداك أبكارًا وَعُونا
ولَمّا باكَرَتها منك نُعمَى بَنانٍ تفضح الغيثَ الهَتونا
أعَدتَ بها الليالي وهي بيضٌ وقد كانت بها الأيام جُونا
فليس بعادمٍ مرعًى خصيبًا أخو سَغَبٍ ولا ماءً مَعينا
فلا عَدمَ الشآم وساكنوه ظُبًى تشفي بها الداءَ الدَّفينا
سُهادُ جُفونها في كل فَيح سُهادٌ يمنح الغمض الجفونا
فَألمم بالسواحل فهي صَورٌ إليكَ وألحِق الهامَ المتونا

فـقلبُ القـدس مـسـرورٌ ولولا ... سُطاك لكان مكتئبًا حزينا
أدَرتَ على الفرنج وقد تلاقت ... جموعُهُم عليك رَحًى طحونا
ففي بَيسانَ ذاقوا منك بُؤسًا ... وفي صَفَدٍ أتوك مصفَّدينا
لقد جاءتهمُ الأحداثُ جمعًا ... كأنّ صروفها كانت كَمينا
وخانهمُ الزمان ولا مَلامٌ ... فلستَ بمُبغِضٍ زمنًا خَؤونا
لقد جرَّدتَ عزمًا ناصريًّا ... يُحدثُ عن سناه طورُ سينا
وأذعنَ كوكبٌ لمّا تهادتْ ... نجوم ملوكها لك مُذعنينا
فكنتَ كيوسف الصدّيق حقًّا ... له هوت الكواكبُ ساجدينا
لقد فَضُلت قوافيك القوافي ... كما فضل العبيرُ الياسمينا
فَأحسن واثقًا باللّه صنعًا ... فليس يضيعُ أجر المؤمنينا
لقد أتعبت من طلب المعالي ... وحاول أن يؤوس المسلمينا
وإنْ تك آخرًا وخلاك ذمٌّ ... فإنّ محمدًا في الآخرينا



❁ صفةُ إِقامةِ الجمعة بالأقصى شَرَّفه اللَّه تعالى في رابع شعبان ثامن يومِ الفتْح ❁

□ **قال العماد**: لما تسلم السلطان القدس أمر بإظهار المحراب، وكان الدَّاوية قد بنوا في وجهه جداراً، وتركوه للغلة هُريًا[1] وقيل: كانوا اتخذوا مستراحًا عُدوانًا وبغيًا، وكانوا قد بنوا من غربي القِبلة داراً وسيعة، وكنيسةً رفيعة، فأوعز برفع ذلك الحجاب، وكَشفِ النقاب عن عروس المحراب، وهَدمِ ما قُدامه من الأبنية، وتنظيف ما حوله من الأفنية، بحيث يجتمع الناس للجمعة في العَرصة المتَّسعة.

ونُصِبَ المنبر، وأظهر المحراب المطهر، ونُقض ما أحدثوه بين السواري، وفرشوا تلك البسيطة بالبُسط الرفيعة عِوضَ الحُصر والبواري[2]، وعُلقتِ القناديل، وتُلي التنزيل، وحق الحق وبطلت الأباطيل، وتولى الفرقان وعُزِلَ الإنجيل، وصفت السجادات، وصفت العبادات، وأقيمت الصلوات، وأديمت الدعوات، وتجلت البركات، وانجلت الكربات، وانجابت الغيابات، وانثابت الهدايات، وتُليت الآيات، وأعليت الرايات.

ونطق الأذان وخرس الناقوس، وحضر المؤذنون وغاب القُسوس، وزال العبوس والبوس، وطابتِ الأنفاس والنفوس، وأقبلت السعود

---

(١) الهُرْي مفرد: الأهراء، وهو بيت كبير ضخم يُجمع فيه طعام السلطان. انظر «المعجم الوسيط» (٢/ ٩٤٤)، و«خطط المقريزي» (٢/ ٢٢٩).

(٢) البواري: جمع، مفردها: الباري والبارياء، وهو الحصير المنسوج. فارس معرّب. انظر «لسان العرب» (بري).

وأدبرت النحوس، وعاد الإيمان الغـريب منه إلى موطنه، وطُلبَ الفضلُ من معدنه، وورد القراء وقرئ الأوراد، واجتمع الزهاد والعُباد، والأبدال والأوتاد، وعُـبِدَ الواحـد، ووحـد العـابد، وتوافد الراكـع والساجـد، والخـاشع والواجـد، والزَّاهي والزَّاهـد، والحـاكم والشـاهد، والجـاهد والمجاهد، والقائم والقاعد، والمتهجد والساهد، والزائر والوافد.

وصَـدَحَ المنبر، وصـدع المُذكِّـر، وانبعث المعـشـر، وذكر البـعث والمحـشر، وأملى الحُـفـاظ، وأبكى الوعاظ، وتذاكـر العلمـاء، وتناظر الفـقـهاء، وتحـدثت الرواة، وروى المحـدثون، وتحنف الهُـداة، وهدى المتـحنفـون، وأخلص الـداعـون، ودعا المُـخلصـون، وأخـذ بالعـزيمة المترخـصون، ولخص المُفسـرون، وفسر الملخـصون، وانتدى الفـضلاء، وانتدب الخُطـباء، وكثـر المترشـحون للخطابة، المتـوشحـون بالإصابة، المعروفـون بالفصاحة، الموصـوفون بالحصـافة، فما فـيهم إلا من خطب الرُّتبة، ورتب الخطبـة، وأنشأ معنًـى شائقًا، ووشى لفظًا رائقًـا، وسوى كلامًا بالموضع لائقًا، وروى مبتكرًا من البـلاغة فائقًا، وفيهم من عرض علي خُطبـته، وطلب مني نصـبتـه، وتمنى أن ترجح فـضيلتـه، وتنجح وسيلته، وتسبق منيـته، فيها أُمنيته، وكلّهم طال إلى الالتـهاء بها عنقه، وسال من الالتـهاب عليـها عرقُـهُ. وما منهم إلا من يتـأهب ويترقب، ويتوسل ويتقرب، وفيهم من يتعـرض ويتضرع، ويتشوف ويتشفع، وكلٌّ قد لبس وقاره ووقـر لباسه، وضرب في أخماسه أسـداسه، ورفع لهذه الرياســة راسـه، والسـلطان لا يعين ولا يبين، ولا يـخص ولا ينص، ومنهم من يقول: ليتني خطبتُ في الجمعة الأولى، وفُزت باليد الطولى،

وإذا ظفرتُ بطالع سَعدي، فما أبالي بمن خطب بعدي.

فلما دخل يوم الجمعة رابع شعبان أصبح الناس يسألون في تعيين الخطيب السلطان، وامتلأ الجامعُ، واحتفلت المجامع، وتوجست الأبصار والمسامع، وفاضت لرقة القلوب المدامع، وراعت لحلية تلك الحالة وبهاء تلك البهجة الروائع، وغصت بالسابقين لها المواضع، وتوسمت العيون، وتقسمت الظنون، وقال الناس: هذا يومٌ كريم، وفضلٌ عميم، وموسم عظيمٌ، هذا يوم تُجاب فيه الدعوات، وتُصبُّ البركات، وتسال العبرات، وتُقال العثرات، ويتيقظ الغافلون، ويتعظ العاملون. وطوبى لمن عاش، حتى حضر هذا اليوم الذي فيه انتعش الإسلام وارتاش، وما أفضل هذه الطائفة الحاضرة، والعصبة الطاهرة، والأمة الظاهرة، وما أكرم هذه النصرة الناصرية، والأسرة الإمامية والدولة العباسية، والمملكة الأيوبية، والدولة الصلاحية، وهل في بلد الإسلام أشرفُ من هذه الجماعة، التي شرفها اللَّه بالتوفيق لهذه الطاعة.

وتكلموا فيمن يخطب، ولمن يكون المنصب، وتفاوضوا في التفويض، وتحدثوا بالتصريح والتعريض. والأعلام تُعلى، والمنبر يُكسى ويجلى، والأصوات ترتفع، والجماعات تجتمع، والأفواج تزدحم، والأمواج تلتطم، وللعارفين من الضجيج ما في عرفات للحجيج، حتى حان الزوال، وزال الاعتدال، وحيعل(١) الداعي، وأعجل الساعي، نصب السلطان الخطيب بنصه، وأبان عن اختياره بعد فحصه، وأوعز إلى القاضي محيي الدين أبي المعالي محمد بن زكي الدين علي القرشي بأن

(١) حيعل، أي: قال: حيّ على الصلاة.

يرقى ذلك المرقى، وترك جباه الباقين بتقديمه عرقى، فأعرتُهُ من عندي أُهبةً سوداء من تشريف الخلافة، حتى يكمل له شرف الإفاضة والإضافة، فَرَقِيَ العُود، ولقي السعود، واهتزت أعطاف المنبر، واعتزت أطرافُ المعشر.

وخطب وأنصتوا، ونطق وسكتوا، وأفصح وأعرب، وأبدع وأغرب، وأعجز وأعجب، وأوجز وأسهب، ووعظ في خُطبته، وخطب بموعظتيه، وأبان عن فضل البيت المقدس وتقديسه، والمسجد الأقصى من أول تأسيسه، وتطهيره بعد تنجيسه، وإخراس ناقوسه، وإخراج قسيسه، ودعا للخليفة والسلطان، وختم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]. ونزل وصلى في المحراب، وافتتح ببسم اللَّه الرحمن الرحيم من أُمِّ الكتاب، فأم بتلك الأمة، وتم نزولُ الرحمة، وكمل وصولُ النعمة.

ولما قُضيت الصلاة انتشر الناس، واشتهر الإيناس، وانعقد الإجماع واطرد القياس، وكان قد نُصبَ للوعظ تجاه القبلة سرير، ليفرعه كبير، فجلس عليه زين الدين أبو الحسن علي بن نجا، فذكَّر من خاف ومن رجا، ومن سَعِدَ ومن شقي، ومن هلك ومن نجا، وخوَّف بذي الحجة ذوي الحِجا، وجلا بنور عظاته من ظُلم الشبهات ما دجا، وأتى بكل عظة للراقدين موقظة، وللظالمين محفظة، ولأولياء اللَّه مرقِّقة، ولأعداء اللَّه مغلظة.

وضَجَّ المتباكون، وعج المتشاكون، ورقتِ القلوب، وحقت الكُروب، وتصاعدت النعرات، وتحدرت العبرات، وتاب المذنبون،

وأناب المتحوِّبون، وصاح التوابون، وناح الأوَّابون، وجرت حالات جلت، وجلوات حلت، ودعوات علت، وضراعات قُبلت، وفُرصٌ من الولاية الإلهية انتُهِزت، وحصصٌ من العناية الربانية أُحرِزَت.

وصلى السلطان في قُبة الصخرة، والصفوف على سعة الصحن بها مُتصلة، والأمة إلى اللَّه بدوام نصره مبتهلة، والوجوه الموجهة إلى القبلة عليه مُقبلة، والأيدي إلى اللَّه مرفوعة، والدعوات له مسموعة، ثم رُتِّبَ في المسجد الأقصى خطيبًا استمرت خطبته، واستقرت نصبته.

✍ قلتُ: هذه ألفاظ العماد في هذا الفصل من كتاب «الفتح»، وذكره في كتاب «البرق» بعبارةٍ أُخرى تشتمل على فوائد زائدة، وفي تكرار ما تقدم أيضًا بغير تلك العبارة فائدة فإنها معانٍ جليلة كلما كررت حلَتْ.

❁ فصل ❁

◻ **قال العماد في كتاب** «**البرق**»: لما كان يوم الجمعة التالية لجمعة الفتح تقدم السلطان في المسجد الأقصى ببسط العِراص، وإخلائها لأهل الإخلاص، وتنظيفها من الأدناس، وكنس ما في أرجائها من الأرجاس. وقد كان سبق أمره من مبدأ الأمر، بهدم ما هناك من أبنية الكفر، وإبراز المحراب القديم، وإعادة موضعه إلي الوضع الكريم، فقد كان الداوية بنوا غربيه دارًا وأدخلوه فيها، وخلطوه بمبانيها، واتخذوا منه جانبًا مستراحًا للأعلال، وجانبًا هُربًا للغِلال، فأمر في العاجل بكشفِ قناعه، ورفعِ الوضيع من أوضاعه، ونقل ما وقع من أنقاضه، ونقض ما اعتور ذلك الجوهر النفيس من أعراضه، حتى ظَهُرَ موضع المنبر

والمحراب، واستظهر بإزالة ما قُدامه من الحجاب، واجتمع الخَلقُ في ذلك الأسبوع على تفريق ذلك الهدم المجموع، وتعاونوا حتى كشفوه، ونظفوه، ورشوه وفرشوه، وكان قد أمر باتخاذ منبر في تلك الأيام، فنجزوه وركبوه.

ولما أصبحنا يوم الجمعة وجدنا العِلَل مُزاحة، والهمم مُراحة، والخواطر إلى وردها ملتاحة مرتاحة، وهناك فضلاء بلغاء، وعلماء أتقياء، وكلٌّ منهم قد سبق بخطبة الخُطبة، وأمل الفوز بفضيلة تلك الرتبة، وأعد لذلك المقام مقالاً، ونَشطَ بشِقْشَقَةِ فصاحته من قَرَمِ حصافته عقالاً، حتى إذا حيعل الداعي، وتعين الفرض على الساعي، حضر السلطان للصلاة قبة الصخرة، باديةً على أساريره أسرار سروره بالأسرة، وامتلأت تلك العراص والحصون، واستعبرت للفرح بما يسره اللَّه العيون، وآن لدين اللَّه أن تُقضى له الديون وتُفك الرهون، ووجلت القلوب، وخشعت الأصوات، وحسنت الظنون، وعين السلطان القاضي محيي الدين أبا المعالي محمد بن علي القرشي الزكي بن الزكي للصلاة والخطبة، وفرع تلك الرتبة، فصعِدَ وسعد، وحمدَ وأحمد، وأدت المعاني الشريفة ألفاظُه، ونبه الأقاصي والأداني إيقاظُه، وجلا المسامع، وجلت المدامع، وأتى بالخطبتين المفروضتين على الوجه المشروع، والمنهج المتبوع، والشرطِ الموضوع، وذكر في الفتح البكر ما اقتض به أبكار الاستعارات بأبدع البراعات، وأبرع العبارات، وصدح بالصدق، ونطق بالحق، وفاز بالسبق، وحاز الفضيلة على فُضَلاء الغرب والشرق، فهو لنشر المعاني أضم خطيب، له بنشر المعالي أضمخ طيب، فأين قُس في عكاظه من

قياس ألفاظه! وأين سحبان من سجعاته! وابن نُباته من نباته! ولو عاشا لافتقرا إلى فِقَرِه، واحتقرا أعراضهما عند جوهره، ودعا لأمير المؤمنين، ثم لسلطان المسلمين، ونزل وقام إمامًا أكمل بصلاته الفرض، أرضى بسمت دعواته والطمأنينة في ركعاته وسجداته أهلَ السماء والأرض، وسُر السلطان بنصبه ورفعه، وامتلأ صدرُه حبورًا منه بجلاء بصره وسمعه، فقد أخذت بالأبصار أشعة أنوار الخُطبة، في سواد الأهبة، وعظمت أخطار المهابة في خواطر المحبة، وكرُمت سرائرُ الزلفى إلى اللَّه والقُربة.

ثم رتب السلطان بعده خطيبًا تستمر إقامته للجُمع والجماعات، وتستقر ملازمته لأداء الصلوات.

ولما قضيت الصلاة تلك الجمعة، نُصب سريرٌ للوعظ أبقى تلك الأُمة المجتمعة، وتقدم السلطان إلى زين الدين الواعظ ليفرع السرير، وينفع بعظاته الصغير والكبير، وحضر المجلس بمرأًى منه ومسمع، فكان أنور مجلس ومجلى وأشرف جمع ومجمع، فحقق ورقق، وأشهد وأشهق، وحلب بعباراته الحُلوة العبرات، وشار العسل بمعسول الإشارات، وبشر البشر بشارة البشارات، وذكر الفتح وبكارته، والقدس وطهارته، والدين وجسارته، والكفر وخسارته، والقدر وإعانته، والظفر وإبانته، والصخرة وإصراخها، والروعة وإفراخها، والنار وصراطها، والقيامة وأشراطها، والرحمة وبابها من باب الرحمة، والجنة وجناها لهذه الزحمة، وما أعده اللَّه لهذه الطائفة، وما أنزله من الأمن على القلوب الخائفة، ووصف ببلاغته ما لا يبلغ إليه نُطقُ الألسنة والواصفة،

ووصف الجهاد وفـرائضه وفضائله، والخيـر ودلائله، والنجح ووسائله، والشرع ومسائله، والذنب وغوائله، وإحسان السلطان وفواضله، والبحر وساحله، والدين وحقه، والكفر وباطله، وكان يومًا راجحًا، وسومًا رابحًا.

قال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٢ / ٣٤٦):

«لما تطهّر بيت المقدس مما كان فيـه من الصلبان والنواقيس والرهبان والقـساقس، ودخله أهل الإيمان، ونُودي بالأذان وقُـرِئ القرآن، ووُحِّـد الرحمن، كان أول جمـعة أقيمت في اليوم الرابع من شـعبان، بعد يوم الفتح بثمان، فنُصب المنبر إلى جانب المحراب، وبُسِطت البُسط، وعُلِّقت القنـاديل، وتُلِي التـنزيل، وجـاء الحق وبـطلت الأباطيـل، وصُـفّت السّجّادات، وكثرت السجدات، وتنوعت العبادات، وارتفعت الدعوات، ونزلت البركات، وانجلت الكربات، وأُقيمت الصلوات، وأذّن المؤذنون، وخرس القـسيـسون، وزال البوس، وطابت النفـوس، وأقبلت السـعود وأدبرت النحوس، وعُـبِد اللَّه الأحد الصـمد الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الأخلاص: ٣، ٤]، وكبّره الراكع والساجد، والقائم والقاعد، وامتـلأ الجامع، وسالت لرقة القلوب المدامع، ولما أذّن المؤذنون للصـلاة قبل الزوال، كـادت القلوب تطير من الفـرح في ذلك الحال، ولم يكن عُـيِّن خطيب فبرز من السلطان المرسـوم الصلاحي وهو في قبة الصـخرة أن يكون القاضي محيي الدين بن الزكي اليـوم خطيبًا، فلبس الخلعة السوداء، وخطب للناس خطبة سنية فصيحة بليغة».



❁ خطبةُ القاضي محيي الدين بن الزكيّ ❁

❑ **قال العماد**: وخطب القاضي محيي الدين بن زكي الدين أربع خُطَبٍ. في أربع جُمَع، كلها من إنشائه، وأودعها سر بلاغة عُنيت بإفشائه، وذكرت الخُطبة الأولى، ويد الفصاحة فيها طُولى، افتتاحها بهذه الآيات: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٢ - ٤]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً﴾ الآية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [سبأ: ١]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [فاطر: ١].

* **والخطبة**: الحمد لله مُعِزِّ الإسلام بنصره، ومُذِل الشرك بقهره، ومُصرفِ الأمور بأمره، ومديمِ النعمِ بشكره، ومستدرج الكافرين بمكره، الذي قدر الأيام دُولاً بعدله، وجعل العاقبة للمتقين بفَضله، وأفاء على عباده من ظِله، وأظهر دينه على الدين كله، القاهر فوق عباده فلا يُمانع، والظاهر على خليقته فلا يُنازع، والآمر بما يشاءُ فلا يُرَاجع، والحاكم بما يريدُ فلا يُدافع.

أحمده على إظفاره وإظهاره، وإعزازه لأوليائه ونَصره لأنصاره، وتطهيره بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره، حَمدَ من استشعر

الحمد باطنُ سِره وظاهر جهاره.

وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، الأحد الصمد الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الأخلاص: ٣، ٤]، شهادَةَ من طهر بالتوحيد قَلبهُ، وأرضى به ربه.

وأشهدُ أن محمدًا ﷺ عَبدُه، ورسولُه، رافع الشك، وداحض الشرك، وراحض الإفك، الذي أُسرِيَ به من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى، وعُرِجَ به منه إلى السماوات العُلا إلى سِدرة المنتهى. عندها جَنَّةُ المأوى، ما زاغ البصر وما طغى.

صلى اللَّه عليه، وعلى خليفته أبي بكر الصديق السابق إلى الإيمان، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رَفَعَ عن هذا البيت شعار الصلبان، وعلى أمير المؤمنين عُثمان بن عفان ذي النُّورين جامعِ القرآن، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مزلزل الشرك ومكسر الأوثان، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان.

أيها الناس، أبشروا برضوان اللَّه الذي هو الغاية القُصوى، والدرجة العُليا، لما يسره اللَّه على أيديكم من استرداد هذه الضالة، من الأمة الضالة، وردها إلى مقرِّها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المُشركين قريبًا من مائة عام، وتطهير هذا البيت الذي أَذِنَ اللَّه أن يُرفَعَ وأن يُذكر فيه اسمه، وإماطةِ الشرك عن طُرُقه بعد أن امتد عليها رُواقه، واستقر فيها رسمه، ورَفعِ قواعده بالتوحيد فإنه بُني عليه، وبالتقوى فإنه أُسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه، فهو موطن أبيكم إبراهيم، ومعراج نبيكم محمد عليه السلام، وقبلتكم التي كنتم تُصلون إليها في

ابتداء الإسلام، وهو مقرُّ الأنبياء، ومقصد الأولياء، ومَفرُّ الرُّسل، ومهبط الوحي، ومنزل تَنَزُّلِ الأمر والنهي، وهو في أرض المحشر وصعيد المنشر، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها اللَّه في كتابه المبين، وهو المسجد الذي صلى فيه رسول اللَّه بالملائكة المقربين، وهو البلد الذي بعث اللَّه إليه عبده ورسوله، وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحه؛ عيسى الذي شرَّفه اللَّه برسالته، وكرَّمه بنبوَّته، ولم يزحزحه عن رُتبة عبوديَّته، وفقال تعالى: ﴿لن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ [النساء: ١٧٢]، وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧].

وهو أولُ القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين، لا تُشدُّ الرِّحالُ بعد المسجدين إلا إليه، ولا تُعقدُ الخناصر بعد الموطنين إلا عليه، ولولا أنكم ممن اختاره اللَّه من عباده، واصطفاه من سُكَّان بلاده، لما خصَّكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مُجارٍ، ولا يباريكم في شَرَفها مُبارٍ، فطوبى لكم من جيشٍ ظَهرت على أيديكم المعجزات النَّبوية، والوقعات البَدرية، والعزمات الصدِّيقية، والفتوح العُمَرِيَّة، والجيوش العُثمانية، والفتكات العلوية، جدَّدتُم للإسلام أيامَ القادسية، والوقعات اليرموكية، والمنازلات الخيبرية، والهجمات الخالدية، فجزاكم اللَّه عن نبيه محمد ﷺ أفضلَ الجزاء، وشكر لكم ما بذلتموه من مُهَجكم في مقارعة الأعداء، وتقبلَ منكم ما تقربتم به إليه من مُهرَاقِ الدماء، وأثابكم الجَنَّة فهي دار السعداء، فاقدروا - رحمكم اللَّه - هذه النِّعمة حق قدرها، وقوموا للَّه تعالى بواجبِ شُكرها، فله النِّعمة عليكم

بتخصيصكم بهذه النِّعْمة، وترشيحكم لهذه الخِدمة، فهذا هو الفَتحُ الذي فُتِحَت له أبوابُ السماء، وتبلَّجت بأنواره وجوه الظلماء، وابتهج به الملائكةُ المقرَّبون، وقرَّ به عَينًا الأنبياءُ والمرسلون، فماذا عليكم من النِّعمة بأن جعلكم الجيش الذي يفتح عليه البيت المقدَّس في آخر الزَّمان، والجُند الذي تقوم بسيوفهم بعد فَترةٍ من النبوة أعلامُ الإيمان، فيوشك أن تكون التهاني به بين أهل الخضراء[1]، أكثر من التهاني به بين أهل الغَبراء، أليس هو البيتُ الذي ذكره اللَّه في كتابه، ونصَّ عليه في خطابه، فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١] ـ الآية؟ أليس هو البيت الذي عظَّمته الملوك، وأثنت عليه الرُّسلُ، وتُليت فيه الكتبُ الأربعة المنزَّلة من إلهكم عز وجل؟ أليس هو البيتُ الذي أمسك اللَّه عز وجل الشمس على يوشع لأجله أن تَغرُب، وباعد بين خطواتها لِيتيسَّرَ فتحهُ ويَقرُب؟ أليس هو البيتُ الذي أمر اللَّه موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يُجبه إلا رجلان، وغضب عليهم لأجله، فألقاهم في التيه عقوبةً للعصيان؟

فاحمدوا اللَّه الذي أمضى عزائمكم لما نَكَلت عنه بنو إسرائيل، وقد فضلهم على العالمين، ووفَّقكم لما خُذِلَ فيه من كان قبلكم من الأمم الماضين، وجَمَعَ لأجله كلمتكم وكانت شَتَّى، وأغناكم بما أمضته «كان» و«قد» عن «سوف» و«حتَّى». فليهنكم أن اللَّه قد ذكركم به فيمن عنده، وجعلكم ـ بعد أن كنتم جنودًا لأهويتكم ـ جُندَه، وشكركم الملائكةُ المنزَّلون على ما أهديتم إلى هذا البيت من طِيبِ التوحيد، ونَشرِ التقديس

(١) الخضراء: السماء. انظر: «القاموس المحيط» مادة (خضر).

والتَّـحمـيـد، وما أَمَطتُم عن طُرُقـهم فـيه من أذى الـشرك والتَّـثليث، والاعتقاد الفاجر الخبيث، فـالآن يستغفر لكم أملاكُ السماوات، وتصلِّي عليكم الصلوات المباركات.

فاحفظوا ـ رحمكم اللَّه ـ هذه الموهبة فـيكم، واحرسوا هذه النعمة عندكم، بتقوى اللَّه التي من تمسَّك بها سَلِمَ، ومن اعـتصم بعُروتها نجا وعُصِم، واحذروا من اتباع الهوى، وموافـقة الرَّدَى، ورجوع القَهقَرَى، والنكول عن العِـدَى، وخـذوا في انتهـاز الفُـرصة، وإزالة مـا بقي من الغُصَّة، وجاهدوا في اللَّه حق جهاده، وبيعوا عبادَ اللَّه أنفسكم في رضاه إذ جـعلكم من عبـاده، وإياكم أن يسـتزلكمُ الشـيطان، وأن يتـداخلكم الطُّغيان، فيخيَّل لكم أن هذا النصر بسـيوفكم الحداد، وبخيولكم الجياد، وبجَلادكم في مـواطن الجِلاد، لا واللَّه، ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠].

واحذروا عـبادَ اللَّـه ـ بعد أن شَـرَّفكم بهذا الفـتح الجليل، والمنح الجـزيل، وخصَّكم بهـذا الفـتح المُبين، وأعلق أيديكم بحـبله المتين ـ أن تقترفوا كبـيرًا من مناهيه، وأن تأتوا عظيمًا من معاصـيه، فتكونوا كالتي نَقَضت غَزلها من بعد قوةٍ أنكاثًا، والذي آتيـناه آياتنا فانسَلخَ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغـاوين، والجهادَ الجهـادَ فهو من أفضل عـباداتكم، وأشرف عاداتكم، انصروا اللَّه ينصُـرْكُم، واذكروا اللَّه يذكركم، اشكروا اللَّه يزدكم ويشكركـم، جُدُّوا في حَـسمِ الدَّاء، وقَطعِ شَـأفة الأعـداء، وتطهيـرِ بقيةِ الأرض التي أغضـبتِ اللَّه ورسولهُ، واقطعوا فـروع الكُفرِ واحتثوا أُصوله، فقد نادت الأيام بالثارات الإسلامية، والمِلة المحمدية.

اللَّه أكبر، فَتَحَ اللَّه ونَصَرَ، غَلَبَ اللَّه وقَهَرَ، أَذَلَّ اللَّه من كَفَر.

واعلموا ـ رحمكم اللَّه ـ أن هذه فُرصة فانتهزوها، وفريسة فناجزوها، ومهمَّة فأخرجوا لها هِمَمكم وبَرِّزُوها، وسيروا إليها سرايا عزماتكم وجَهِّزُوها، فالأمور بأواخرها، والمكاسب بذخائرها، فقد أظفركم اللَّه بهذا العدو المخذول، وهم مثلكم أو يزيدون، فكيف وقد أضحى في قُبالة الواحد منهم منكم عشرون، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٥] أعاننا اللَّه وإياكم على اتباع أوامره، والازدجار بزواجره، وأيدنا مَعشَرَ المسلمين بنصر من عنده ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

وتمام الخُطبة والخطبة الثانية قريب مما جرَت به العادة، وقال بعد الدُّعاء للخليفة: اللَّهم، وأدم سلطان عبدك، الخاضع لهيبتك، الشاكرِ لنعمتك، المُعترفِ بموهبتك، سيفك القاطع، وشهابك اللامع، والمحامي عن دينك المُدَافع، والذابِّ عن حَرَمك الممانع، السَّيِّد الأجل، الملكَ الناصر، جامعِ كلمة الإيمان، وقامعِ عَبدة الصلبان، صلاحِ الدُّنيا والدِّين، سلطان الإسلام والمسلمين، مطهرِ البيت المقدَّس، أبي المُظفر يوسف بن أيوب، محيي دولة أمير المؤمنين.

اللَّهم عُمَّ بدولته البسيطة، واجعل ملائكتك براياته محيطة، وأحسن عن الدِّين الحنيفي جزاءه، واشكر عن المِلة المحمدية عَزمه ومضاءه.

اللَّهم أبقِ للإسلام مُهجته، ووقِّ للإيمان حَوزته، وانظر في المشارق

والمغارب دعوته.

اللَّهم كما فتحت على يَدِهِ البيتَ المقدس بعد أن ظُنت الظنون، وابتُلي المؤمنون، فافتح على يده أداني الأرض وأقاصيها، وملِّكْه صياصي الكفرة ونواصيها، فلا تلقاه منهم كتيبة إلا مزَّقها، ولا جماعة إلا فرَّقها، ولا طائفة بعد طائفة إلا ألحقها بمن سبقها.

اللَّهم اشكر عن محمد ﷺ سَعيه، وأنفذ في المشارق والمغارب أمره ونَهيه، اللَّهم وأصلح به أوساطَ البلاد وأطرافَها، وأرجاء الممالك وأكنافها.

اللَّهم ذلل به مَعاطِسَ الكُفار، وأرغِم به أُنوف الفُجار، وانشر ذوائب مُلكه على الأمصار، وابثُث سرايا جنوده في سُبُل الأقطار.

اللَّهم ثبتِ المُلكَ فيه وفي عَقبه إلى يوم الدين، واحفظه في بنيه وبني أبيه الملوك الميامين، واشدد عَضُدَه ببقائهم، واقض بإعزاز أوليائه وأوليائهم.

اللَّهم كما أجريت على يده في الإسلام هذه الحسنة التي تبقى على الأيام، وتتخلد على مرِّ الشهور والأعوام، فارزُقه المُلكَ الأبديَّ الذي لا ينفد في دار المتقين، وأجب دعاءه في قوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

ثم دعا بما جرت به العادة»[1].

---

(١) «عيون الروضتين في أخبار الدولتين» لأبي شامة (٣/ ٣٧٦ ـ ٣٩١) ـ مؤسسة الرسالة.

* من وصايا صلاح الدين لجنوده... ويا لها من وصية!!:

□ قال ـ رحمه اللَّه ـ: «اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم في ذممكم معلّقة، واللَّه ـ عز وجل ـ سائلكم يوم القيامة عنهم، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه عن البلاد والعباد غيركم، فإن توليتم ـ والعياذ باللَّه ـ طوى البلاد وأهلك العباد، وأخذ الأموال والأطفال والنساء، وعُبِد الصليب في المساجد، وعُزِل القرآن منها والصلاة، وكان ذلك كله في ذممكم، فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا كله، وأكلتم أموال المسلمين لتدفعوا عنهم عدوهم وتنصروا ضعيفهم، فالمسلمون في سائر البلاد متعلّقون بكم، والسلام»[1].

المدرسة الصلاحية من مآثر صلاح الدين

* أضاعها سلاطين الأتراك:

□ قال الأصبهاني في «الفتح القُسّي» ص(١٤٥): «فاوض السلطان جلساءَه من العلماء الأبرار، والأتقياء الأخيار، في مدرسة للفقهاء الشافعية، ورباط للصلحاء الصوفية، فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة بـ(صند حنّة) عند باب أسباط، وعين دار البطرك، وهي قرب كنيسة القيامة للرباط ووقف عليهما وقوفًا، وأسدى بذلك للطائفتين معروفًا ـ يريد الشافعية والصوفية ـ وارتاد أيضًا مدارس للطوائف ـ يريد المذاهب الإسلامية الأخرى ـ ليُضيفها إلى ما أولاه من العوارف».

(١) «البداية والنهاية» (١٢/٣٤٨).

□ وقد أوقف صلاح الدين مكان المدرسة الصلاحية. في ثالث عشر شهر رجب سنة ثمان وثماني وخمسمائة: وجعلها للشافعية... وكانت على مرّ قرون متتابعة من أجلّ المدارس في ديار الإسلام، وتولى مشيختها والتدريس فيها أعلام من العلماء:

وأولهم: قاضي القضاة المعروف «ابن شدّاد» صاحب كتاب «المحاسن اليوسفية» في سيرة صلاح الدين. وكان من المعاصرين، الذين يعملون في خدمة السلطان.

ومنهم: شيخ الإسلام عبد الرحمن محمد بن الحسين بن عساكر شيخ الشافعية بالشام.. كان يقيم بالقدس أشهرًا وبدمشق أشهرًا. وتوفي سنة ٦٢٠هـ.

ومن مشاهيرهم: شيخ الإسلام أبو عمر عثمان، المشهور بابن الصلاح، صاحب كتاب «علوم الحديث» توفي سنة ٦٤٣هـ.

ومنهم شيخ الإسلام محمد بن محمد الجزري المقرئ الشافعي صاحب كتاب «النشر في القراءات العشر» توفي سنة ٨٣٣هـ.

وفي أواخر العهد المملوكي كان يدرس فيها إبراهيم بن الأمير ناصر الدين علاّمه عصره وكان حيًّا على رأس سنة ٩٠٠هـ[١].

□ وفي سنة ١٨٥٦م أصدر السلطان عبد المجيد أمرًا لمتصرّف القدس بتسليم المدرسة الصلاحية لقنصل فرنسا، فسُلِّمت له، وبُني لها

(١) انظر «الأنس الجليل» فقد ذكر المؤلف أسماء العلماء الذين درسوا في المدرسة الصلاحية حتى زمانه سنة ٩٠٠هـ (٢/ ١٠٢).

سورًا وحصنًا، وقُدِّمت هدية من السلطان عبد المجيد إلى إمبراطور فرنسا «نابليون الثالث» اعترافًا بجميل فرنسا لمساعدته في حرب القرم عام ١٨٥٦م. فعمّرها الرهبان المُسَمَّوْن بالآباء البيض، وجعلوها مدرسة إكليريكية.

وفي الحرب العالمية الأولى استردها جمال باشا، وأقامها كلية علمية دينية، أتى لها بالأدوات المطلوبة من ألمانيا.

وبعد خروج العثمانيين من القدس أُعيدت إلى الآباء البيض، وهي اليوم مدرسة، وفيها متحف وكنيسة.

أخرجها السلطان عبد المجيد من ملكية الأوقاف الإسلامية، وقدّمها هدية للأعداء، وعندما جاء الإنجليز كان عندهم علم بهذا فأرجعوها إلى من امتلكها بالهبة من السلطان. أما عمل جمال باشا فلم يعتمد فيه على فرمان سلطاني، فكان فرمان السلطان عبد المجيد أقوى فثبتت لهم.

◻ والذي نقوله للسلطان عبد المجيد في قبره:

من الذي ملّكك أرض القدس لتُهدي منها من تشاء؟

لا يوجد في شرع الخلافة الإسلامية التي تمثلها أن يهدي الخليفة أوقاف المسلمين إلى أعدائهم؟»[1].



(١) «بيت المقدس» لشرّاب ص(١٤٩ ـ ١٥٠).

عكا وما أدراك ما عكا؟
صفحات مجد وبطولة

□ بعد عودة القدس إلى أيدي المسلمين ركبت جماعة من الرهبان والقسيسين الذين كانوا ببيت المقدس وغيره، . . . من صور في أربعة مراكب، وخرجوا يطوفون ببلدان النصارى البحرية، وما هو قاطع البحر من الناحية الأخرى، يحرضون الفرنج ويحثونهم على الانتصار لبيت المقدس، ويذكرون لهم ما جرى على أهل القدس، وأهل السواحل من القتل والسبي وخراب الديار، وقد صوروا صورة المسيح وصورة عربي آخر يضربه ويؤذيه، فإذا سألوهم من هذا الذي يضرب المسيح؟ قالوا: هذا نبي العرب يضربه، وقد جرحه ومات. فينزعجون لذلك ويحمون ويبكون ويحزنون، فعند ذلك خرجوا من بلادهم لنصرة دينهم ونبيهم، وموضع حجهم على الصعب والذلول حتى النساء المخدرات والزواني والزانيات الذين هم عند أهليهم أعز الثمرات»[١] .

وصل الصليبيون إلى عكا وحاصروها سنة خمس وثمانين وخمسمائة، وتتابعت عليهم الإمدادات من كل أنحاء أوروبا، ومن القواعد الصليبية في البحر المتوسط، حتى أن نساء الفرنج ليخرجن بنية القتال، ومنهن من تأتي بنية راحة الغرباء لينكحوها في الغربة، فيتخذن راحة وخدمة وقضاء وطر، قدم إليهم مركب فيه ثلاثمائة امرأة من أحسن النساء، وأجملهن بهذه النية[٢] .

---

(١) «البداية والنهاية» (١٢/ ٣٣٥).

(٢) «البداية والنهاية» (١٢/ ٣٣٤).

ورابط المسلمون داخل عكا وحولها بقيادة الملك الناصر صلاح الدين، وصبروا وصابروا لمدة سبعة وثلاثين شهرًا، ولكن شاءت إرادة اللَّه أن تسقط عكا في أيدي الصليبيين.

* شباب صنعهم الإسلام وبطولات نادرة في عكا:

قال ابن كثير: «تواترت مراكب الفرنج من كل جزيرة؛ لأجل نصرة أصحابهم، يمدونهم بالقوة والميرة، وعملت الفرنج ثلاثة أبرجة من خشب وحديد، عليها جلود مسقاة بالخل، لئلا يعمل فيها النفط، يسع البرج منها خمسمائة مقاتل، وهي أعلا من أبرجة البلد، وهي مركبة على عجل بحيث يديرونها كيف شاءوا، وعلى ظهر كل منها منجنيق كبير، فلما رأى المسلمون ذلك أهمهم أمرهم، وخافوا على البلد ومن فيه من المسلمين أن يؤخذوا، وحصل لهم ضيق منها، فأعمل السلطان فكره بإحراقها، وأحضر النفاطين ووعدهم الأموال الجزيلة إن هم أحرقوها، فانتدب لذلك شاب نحاس من دمشق يعرف بعلي بن عريف النحاسين، والتزم بإحراقها، فأخذ النفط الأبيض وخلطه بأدوية يعرفها، وغلى ذلك في ثلاثة قدور من نحاس حتى صار نارًا تتأجج، ورمى كل برج منها بقدر من تلك القدور بالمنجنيق من داخل عكا، فاحترقت الأبرجة الثلاثة حتى صارت نارًا بإذن اللَّه، لها ألسنة في الجو متصاعدة، واحترق من كان فيها، فصرخ المسلمون صرخة واحدة بالتهليل، واحترق في كل برج منها سبعون كفورًا، وكان يومًا على الكافرين عسيرًا، وذلك يوم الاثنين الثاني والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة (٥٨٥هـ)، وكان الفرنج قد تعبوا في عملها سبعة أشهر، فاحترقت في يوم واحد

﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، ثم أمر السلطان لذلك الشاب النحاس بعطية سنية، وأموال كثيرة، فامتنع أن يقبل شيئًا من ذلك، وقال: إنما عملت ذلك ابتغاء وجه اللَّه، ورجاء ما عنده سبحانه، فلا أريد منكم جزاء ولا شكورًا»[١].

* البطل المسلم عيسى العوّام قصة نهديها لمن زوّروا التاريخ وزيّفوه:

نهدي قصة هذا البطل إلى القزم يوسف شاهين، وهو وأمثاله دأبوا على تزوير التاريخ فصوّرا عيسى على أنه مسيحي.

والقصة يرويها القاضي ابن شداد في «النوادر السلطانية» أيام محنة عكا: قال: «ومن نوادر هذه الوقعة ومحاسنها أن عوّامًا مسلمًا كان يقال له عيسى، وكان يدخل إلى البلد[٢] بالكتب والنفقات على وسطه ليلاً، على غِرّة من العدو، وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو، وكان ذات ليلة شدّ على وسطه ثلاثة أكياس، فيها ألف دينار، وكتب للعسكر، وعام في البحر فجرى عليه مَن أهلكه، وأبطأ خبره عنا، وكانت عادته أنه إذا دخل البلد طار طير عرّفنا بوصوله، فأبطأ الطير، فاستشعر الناس هلاكه، ولما كان بعد أيام بينما الناس على طرف البحر في البلد، وإذا البحر قد قذف إليهم ميتًا غريقًا، فافتقدوه فوجدوه عيسى العوّام، ووجدوا على وسطه الذهب وشمع الكتب، وكان الذهب

(١) «البداية والنهاية» (١٢/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦).

(٢) أي: عكا أثناء حصار الفرنج لها.

نفقة للمجاهدين، فما رئي من أدّى الأمانة في حال حياته وقد أدّاها بعد وفاته إلا هذا الرجل، وكان ذلك في العشر الأخير من رجب»[١] .

فهل أدّى من زوروا التاريخ أمانة الكلمة للأجيال أم ضيّعوها؟!

وأمام أسوار عكا كان السلطان البطل صلاح الدين يطوف بين الأطلاب، وينادي بنفسه: «يا للإسلام» وعيناه تذرفان بالدمع، وكلما نظر إلى عكا، وما حلّ بها من البلاء، وما يجرى على ساكنيها من المصاب العظيم، اشتد في الزحف والحث على القتال، ولم يطعم في يوم زحفهم على عكا طعامًا البتة، وإنما شرب أقداح مشروب كان يشير بها الطبيب.

ويرسل إليه أهل عكا: «إنا قد بلغ منا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم، ونحن في الغد ـ يعني يوم الأربعاء ثامن جمادى الآخرة ـ إن لم تعملوا معنا شيئًا نطلب الأمان، ونسلم البلد ونشتري مجرد رقابنا، وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين وأنكاه في قلوبهم، فإن عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر أيضًا وجميع البلاد الإسلامية، واحتوت على كبار من أمراء العسكر وشجعان الإسلام، كسيف الدين المشطوب، وبهاء الدين قراقوش[٢] ، وغيرهما؛ وكان بهاء الدين قراقوش ملزمًا بحراستها منذ

---

(١) «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» لبهاء الدين بن شداد.

(٢) انظر إلى من زيّفوا التاريخ.. وكيف جعلوا من هذا البطل العظيم الذي تولّى الدفاع عن عكا في أشد أوقات المحن... كيف جعلوا منه رمزًا للحاكم المستبد. ألا لعنة اللّه على الكاذبين.

قدوم العدو المخذول عليها، وأصاب السلطان ـ رحمه اللَّه ـ من ذلك ما لم يصبه بشيء غيره، وخيف على مزاجه التشوش.

وانظر كيف اجتمعت الدنيا على قتال الأبطال الأشاوس:

لقد قدم مع من قدم لقتال المسلمين ملك الألمان: (فإنه أقبل في عُدد وعَدد كثير جدًّا، قريب من ثلاثمائة ألف مقاتل، من نيته خراب البلد وقتل أهلها من المسلمين، والانتصار لبيت المقدس، وأن يأخذ البلاد إقليمًا بعد إقليم، حتى مكة والمدينة، فما نال من ذلك شيئًا بعون اللَّه وقوته، بل أهلكهم اللَّه ـ عز وجل ـ في كل مكان وزمان، فكانوا يتخطفون كما يتخطف الحيوان حتى اجتاز ملكهم بنهر شديد الجرية، فدعته نفسه لأن يسبح فيه، فلما صار فيه حمله الماء إلى شجرة فشجت رأسه، وأخمدت أنفاسه، وأراح اللَّه منه العباد والبلاد، فأقيم ولده الأصغر في الملك، وقد تمزق شملهم، وقَلَّت منهم العدة، ثم أقبلوا لا يجتازون ببلد إلا قتلوا فيه، فما وصلوا إلى أصحابهم الذين على عكا إلا في ألف فارس، فلم يرفعوا بهم رأسًا، ولا لهم قدرًا، ولا قيمة بينهم، ولا عند أحد من أهل ملتهم، ولا غيرهم، وهكذا شأن من أراد إطفاء نور اللَّه، وإذلال دين الإسلام)[1].

* وانظر إلى أبطال الإسلام:

لما أحس العدو الصليبي في نفسه قوة، بسبب توالي النجد عليهم، اشتد طمعهم في عكا، وسلّطوا عليها المنجنيقات من كل جانب،

(١) «البداية والنهاية» (١٢/ ٣٣٦).

وتناوبوا عليهــا بحيث لا يعطل رمــيها ليــلاً ولا نهاراً، وذلك في رجب سنة ست وثمــانين وخــمســمــائة، «ولما رأى أهل البلد مــا نزل بهم من مضــايقة العــدو وتعلّق طمعــه بهم حرّكتــهم النخوة الإســلاميــة، وكان مقــدموه حــينئذ: أمــا والي البلد وحــارسه فالأمــير الكبــير بهــاء الدين قراقوش، وأما مقدم العسكر الكبير حسام الدين أبو الهيجاء، وكان رجلاً ذا كرم وشجاعة، وقــدمة في عشيرته ومضاء في عزيمتــه، فاجتمع رأيهم على أنهم يخــرجون إلــى العدو، فــارسهم وراجــلهم، عن غرة وغــفلة منهم، ففــعلوا ذلك، وفُتحت الأبواب، وخــرجوا دُفعــة واحدة من كل جانب، ولم يشــعر العدو إلا والسيف فــيهم حاكم عادل، وســهم قضاء اللَّه وقــدره فــيهم نافذ خــاذل، وهجم الإسلام على الكفــر في منازله، وأخذ بناصــية مناضله، وداس مــقاتله، ولمّا ولج المسلمــون خيــام العدو ذهلوا عن المنجنيقات وحــراستها، وحفظهــا وسياستهــا، فوصلت شهب الزرّاقين المقذوفــة، وجاءت عوائد اللَّه في نصــرة دينه المألوفة، فلم تكن ساعة حتى اضطرمت فيها النيران، وتحرّق منها بيدها ما شيّد الأعداء في المدة الطويلة في أقرب آن، وقُتِل من العدو في ذلك اليــوم سبعون فارسًا وأُسِر خلق عظيم، وكان من جملة الأســرى رجل مذكور منهم، ظفر به واحــد من آحاد الناس ولم يعــلم بمكانته، فلمــا انفــصل الحرب، ســأل الفــرنج عنه هل هو حيّ أم لا؟ فعــرف الذي هو عنده عند ســؤالهم أنه رجل كبير، وخاف أن يُغلب عليه ويُرد إلــيهم بنوع مصانعة أو على وجه من الوجوه، فــسارع وقتله، وبذل الفرنج فــيه أموالاً كثــيرة، ولم يزالوا يشتــدون في طلبه ويحرصــون عليه حــتى رُميت إليهم جــثته، فــضربوا

بنفوسهم الأرض، وحثوا على وجوههم التراب، ووقعت عليهم بسبب ذلك خمدة عظيمة، وكتموا أمره، ولم يظهروا مَنْ كان، واستصغر المسلمون بعد ذلك أمرهم، وهجم عليهم العرب من كل جانب يسرقون ويقتلون، ويأسرون إلى ليلة النصف مِن شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة.

وكان الكندهري قد أنفق على منجنيق كبير عظيم الشكل ـ على ما نقل الجواسيس والمستأمنون ـ ألفًا وخمسمائة دينار، وأعدّه ليقدمه إلى البلد، ومنع من حريقه ذلك اليوم كونُه بعيدًا عن البلد، ولم يقدم بعد إليه، فلما كانت الليلة المباركة المذكورة خرج الزرّاقون والمقاتلة، والهم يحفظهم من كل جانب، واللَّه يكلؤهم، فساروا من تحت ستر اللَّه حتى أتوا المنجنيق المذكور، وأضرموا فيه النار، فاحترق من ساعته، ووقع الصياح من الطائفتين، وذهل العدو، فإنه كان بعيدًا من البلد، وخاف أن يكون قد أحيط به من الجوانب، وكان نصرًا من عند اللَّه، وأخرق بلهيبه منجنيق لطيف إلى جانبه»[(١)].

* ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾:

❑قال الحافظ ابن كثير:

«كتب متولي عكا من جهة السلطان صلاح الدين وهو الأمير بهاء الدين قراقوش في العشر الأول من شعبان إلى السلطان: أنه لم يبق عندهم في المدينة من الأقوات إلاّ ما يبلّغهم إلى ليلة النصف من شعبان،

(١)«النوادر السلطانية» لابن شداد ص(١٣٤ ـ ١٣٥).

فلما وصل الكتاب إلى السلطان أسرّها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم، خوفًا من إشاعة ذلك، فيبلغ العدو فيقدموا على المسلمين، وتضعف القلوب. وكان قد كتب إلى أمير الأسطول بالديار المصرية أن يقدم بالميرة إلى عكا، فتأخر سيره، ثم وصلت ثلاث بطش ليلة النصف، فيها من الميرة ما يكفي أهل البلد طول الشتاء، وهي صحبة الحاجب لؤلؤ، فلما أشرفت على البلد نهض إليها أسطول الفرنج ليحول بينها وبين البلد، ويتلف ما فيها، فاقتتلوا في البحر قتالاً شديدًا، والمسلمون في البر يبتهلون إلى اللَّه - عز وجل - في سلامتها، والفرنج أيضًا تصرخ برًّا وبحرًا، وقد ارتفع الضجيج، فنصر اللَّه المسلمين، وسلم مراكبهم، وطابت الريح للبطش فسارت فأحرقت المراكب الفرنجية المحيطة بالميناء، ودخلت البلد سالمة، ففرح بها أهل البلد والجيش فرحًا شديدًا، وكان السلطان قد جهّز قبل هذا البطش الثلاث بطشة كبيرة من بيروت، فيها أربعمائة غرارة، وفيها من الجبن والشحم والقديد والنشاب والنفط شيء كثير، وكانت هذه البطشة من بطش الفرنج المغنومة، وأمر من فيها من التجار أن يلبسوا زيّ الفرنج حتى أنهم حلقوا لحاهم، وشدّوا الزنانير، واستصحبوا في البطشة معهم شيئًا من الخنازير، وقدموا بها على مراكب الفرنج، فاعتقدوا أنهم منهم، وهي سائرة إليهم كالسهم إذا خرج من كبد القوس، فحذرهم الفرنج غائلة المياء من ناحية البلد، فاعتذروا بأنهم مغلوبون عنها، ولا يمكنهم حبسها من قوة الريح، وما زالوا كذلك حتى ولجوا الميناء فأفرغوا ما كان معهم من الميرة، والحرب خدعة، فعبرت الميناء فامتلأ الثغر بها خيرًا، فكفتهم إلا أن قدمت عليهم تلك البطش الثلاث المصرية، وكانت البلد يوجد بها برجان يُقال لأحدهما: برج

الديّان، فاتخذت الفرنج بطشة عظيمة لها خرطوم وفيه محركات، إذا أرادوا أن يضعوه على شيء من الأسوار والأبرجة قلبوه فوصل إلى ما أرادوا، فعظم أمر هذه البطشة على المسلمين، ولم يزالوا في أمرها محتالين، حتى أرسل اللَّه عليها شواظًا من نار فأحرقها وأغرقها، وذلك أن الفرنج أعدوا فيها نفطًا كثيرًا وحطبًا جزلاً، وأخرى خلفها فيها حطب محض، فلما أراد المسلمون المحافظة على الميناء أرسلوا النفط على بطشة الحطب فاحترقت وهي سائرة بين بطش المسلمين، واحترقت الأخرى، وكان في بطشة أخرى لهم مقاتلة تحت قبو قد أحكموه فيها، فلما أرسلوا النفط على برج الديان انعكس الأمر عليهم بقدرة اللَّه تعالى، وذلك لشدة الهواء تلك الليلة، فما تعدت النار بطشتهم فاحترقت، وتعدّى الحريق إلى الأخرى فغرقت، ووصل إلى بطشة المقاتلة فتلفت، وهلك من فيها، فأشبهوا من سلف من أهل الكتاب من الكافرين في قوله تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

* رحم اللَّه شهداء عكا... وما أغدر النّصارى وأخسهم:

كثر القتل في رجالة عكا وخيالتها وقلّت المؤن.. وخرج الأبطال رحمة بعوام المسلمين ـ يفاوضون ملوك الفرنجة.

خرج البطل سيف الدين المشطوب إلى ملك الإفرنسيس بأمان، وقال: «إنا قد أخذنا منكم بلادًا عدّة، وكنا نهدم البلد وندخل فيه، ومع هذا إذا سألونا الأمان أعطيناهم وحملناهم إلى مأمنهم وأكرمناهم، ونحن

(١) «البداية والنهاية» (١٢/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨).

نُسَلّم البلد، وتعطينا الأمان على أنفسنا؟ فأجابه بأن «هؤلاء الملوك الذين أخذتموهم منا، وأنتم أيضًا مماليكي وعبيدي، فأرى فيكم رأيي». وبلغنا بعد ذلك أن المشطوب أغلظ له في القول، وقال: «إنا ما نسلِّم البلد حتى نُقتل بأجمعنا، ولا يُقتل واحد منا حتى يقتل خمسين نفسًا من كباركم»، وانصرف عنه وحمل العوّام كتب أهل عكا للسلطان: «إنا قد تبايعنا على الموت، ولا نزال نقاتل حتى نُقتل، ولا نُسلّم البلد ونحن أحياء، فانظروا أنتم كيف تعملون في شغل العدو عنا، ودفعه عن قتالنا، فهذه عزائمنا، وإياكم أن تخضعوا لهذا العدو أو تلينوا له، فأما نحن فقد فات أمرنا»[1].

ولما ضاق الأمر بأهل عكا، وقلّت المؤن، تيقّنوا أنه متى أُخِذ البلد عنوة ضربت أعناقهم عن آخرهم، وأخذ جميع ما فيه من العدد والأسلحة والمراكب صالح أهل عكا الفرنجة على أن يخرجوا بأنفسهم سالمين، هم وذراريهم ونسائهم، ولكن متى رعى النصارى للمسلمين ذمة وعهدًا، «ففي عصر يوم الثلاثاء السابع وعشرين من رجب سنة سبع وثمانين وخمسمائة ركب الانكتار وجميع عسكر الفرنجية راجلهم وفارسهم، ثم أحضروا من الأسارى المسلمين من كتب اللَّه شهادته في ذلك، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم أوثقوهم في الحبال، وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد، فقتلوهم صبرًا طعنًا وضربًا بالسيف ـ رحمة اللَّه عليهم ـ، وأصبح المسلمون يكشفون الحال فوجدوا المسلمين الشهداء في مصارعهم، وعرفوا مَنْ عرفوه منهم، وغشي المسلمون بذلك حزن عظيم

---

(١) «النوادر السلطانية» ص(١٦٨، ١٦٩ ـ ١٧٠).

وكآبة عظيمة، ولم يبقوا من المسلمين إلا رجلاً معروفًا مقدَّمًا أو قويًّا أيِّدًا للعمل في عمائرهم»[١].

* الأيوبيون بعد صلاح الدين:

بعد وفاة صلاح الدين ومجيء أولاده الثلاثة الذين اقتسموا البلاد ما بين مصر ودمشق وحلب، تراجعت الدولة، وبدأ التناحر بين الإخوة أنفسهم على ما عهد في مثل هذه الأحوال.

تولى حكم القدس بعد صلاح الدين ابنه الملك الأفضل: «علي بن صلاح الدين» وأنشأ المدرسة الأفضلية وتعرف قديمًا بالقبّة، بحارة المغاربة. وقفها على فقهاء المالكية بالقدس.

وأوقف الملك الأفضل عام ٥٨٨هـ ما يحيط ويتصل بموضع البراق الشريف من أرض، وغيرها على أهل المغرب فقيل: «حي المغاربة» وهي المنطقة الواقعة إلى الجنوب من الحرم.

□ يقول ابن كثير: «وكان الأفضل[٢] بعد موت أبيه قد أساء التدبير، فأبعد أمراء أبيه وقرّب الأجانب وأقبل على اللهو»[٣].

بعد أولاد صلاح الدين جاء عمهم العادل، واستطاع أولاد العادل الذين ورثوا الملك الأيوبي مقاومة الصليبيين بعض الشيء، وكان للملك عيسى بن العادل جهاد مع الصليبيين وكان عالمًا يحب العلماء، ويقول: أنا على عقيدة الطحاوي، وقد ساعد أخاه الكامل في موقعة دمياط مع

(١) «النوادر السلطانية» ص(١٧٤).
(٢) ابن صلاح الدين.
(٣) «البداية والنهاية» (١٣/ ١٠).

الفرنجة، ويقول: «واقعة دمياط أدّخرها عند اللَّه تعالى وأرجو أن يرحمني بها»[(١)].

* **تخريب سور بيت المقدس:**

دمّر المعظم عيسى أسوار القدس خوفًا من استيلاء الصليبيين عليها وخرّب المدينة فاضطر أهلها إلى الهجرة في أسوأ الظروف.

❑ يقول ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٣/ ٩٠ ـ ٩١) في أحداث سنة ست عشرة وستمائة:

«في مستهل هذه السنة خُرّب سور بيت المقدس عمّره اللَّه بذكره، أمر بذلك المعظم خوفًا من استيلاء الفرنج عليه بعد مشورة من أشار بذلك، فإن الفرنج إذا تمكنوا من ذلك جعلوه وسيلة إلى أخذ الشام جميعه، فشرع في تخريب السور في أول يوم المحرم، فهرب منه أهله خوفًا من الفرنج أن يهجموا عليهم ليلاً أو نهارًا، وتركوا أموالهم وأثاثهم، وتمزّقوا في البلاد كل ممزق، حتى قيل إنه بيع القنطار الزيت بعشرة دراهم، والرطل النحاس بنصف درهم. وضجّ الناس وابتهلوا إلى اللَّه عند الصخرة وفي الأقصى، وهي أيضًا فعلة شنعاء من المعظم، مع ما أظهر من الفواحش في العام الماضي، فقال بعضهم يهجو المعظم لذلك:

في رجب حلَّلَ الحميّا ... وأخرب القدس في المحرّم

❁ ❁ ❁

---

(١) «البداية والنهاية» (١٣/ ١٣١).

□ وبكى خطيب بيت المقدس محمد بن المبارك القرقساني الخطيب هذه المصيبة فقال:

مُصَابُ القدس قد سَلَبَ الرُّقَادا ... وقد لبس الخطيب به حدادا
وقاضيه قضى نحبًا وإن لم ... يمت لخراب ما أعلى وشادا
ونادى المسجد الأقصى أيرضى ... بهذا الفعل من فرض الجهادا
ومنبرُه الشريف يئنّ خوفًا ... ومما حَلَّ بالمحراب مَادا
ولا تَرْقى لصخرته دموع ... فكم قد أقرحتْ أسفًا فؤادا
كذا محراب داودٍ علته الـ ... ـكآبةُ دمعُه مَجلى العِهادَا
ولازم باب رحمته عذاب ... وسحَّ الطورُ أدمعَه وجادا
وأصبحت المدارس مُعْولات ... تُريق محابر الفتيا المدَادا[1]

□ وبكاه قاضي الطور مجد الدين محمد بن عبد اللَّه الحنفي فقال:

مررتُ على القُدس الشريف مُسَلِّمًا ... على ما تَبقَّى من رُبوع كأنجُمِ
ففاضتْ دُموعُ العَين منّي صبابةً ... على ما مضى من عصرنا المتقدمِ
وقد رام علجٌ أن يُعفي رُسومَهُ ... وشمَّرَ عن كَفي لئيم مُذمَّمِ
فقلتُ له شُلت يمينك خَلِّها ... لمعتبرٍ أو سائلٍ أو مُسلِّمِ
فلو كان تُفدى بالنفوس فديتُه ... بنفسي وهذا الظنُّ في كل مُسلمِ[1]

❀ ❀ ❀

---

(١) «عقود الجمان» (٦/ ٢٦٠ ـ ٢٦١).
(٢) «النجوم الزاهرة» (٦/ ٢٤٥)، «شذرات الذهب» (٥/ ٦٦)، «عقود الجمان» للعيني.

تسليم بيت المقدس للفرنجة

◻ من ثمارهم تعرفونهم... أبعد صلاح الدين يأتي الأقزام ليسلموا بيت المقدس لفريدريك الثاني وملوك أوربا... ويُضيِّع ملوك بني أيوب أمجاد سيدهم وفخرهم صلاح الدين؟

أتى الأمبراطور فريدريك الثاني إلى سورية سنة ٦٢٦هـ من أجل القدس وبعث إلى الكامل يقول:

«إن عتيقك، وتعلم أني أكبر ملوك الفرنج، وأنت كاتبتني بالمجيء، وقد علم البابا والملوك باهتمامي، فإن رجعت خائبًا انكسرت حرمتي. وهذه القدس فهي أصل دين النصرانية. وأنتم قد خربتموها، وليس لها طائل، فإن رأيت أن تنعم عليّ بقصبة البلد ليرتفع رأسي بين الملوك، وأنا ألتزم بحمل دخلها إليك»[١].

ولمّا وصل فريدريك الثاني إلى عكا أرسل إلى الكامل يقول مع رسول:

«الملك يقول: كان الجيد والمصلحة للمسلمين أن يبذلوا كل شيء ولا أجيء إليهم، والآن، فقد كنتم بذلتم لنائبى[٢] الساحل كله، وإطلاق الحقوق بالإسكندرية، وما فعلنا. وقد فعل اللّه لكم ما فعل من ظفركم وإعادتها لكم. ومَن نائبي؟ إنْ هو إلا أقل غلماني، فلا أقلّ من إعطائي ما كنتم بذلتموه له»[٣].

---

(١) «العبر في خبر من غبر» للذهبي (٥/١٠٢).

(٢) في زمن حصار دمياط.

(٣) «كتاب السلوك» للمقريزي (ج١، ق٢/٢٢٨ ـ ٢٢٩)، وكتاب «وثائق الحروب الصليبية» ص(٢٤٨).

يقول ابن كثير: «ثم دخلت سنة ست وعشرين وستمائة... استهلت هذه السنة وملوك بني أيوب مفترقون مختلفون، قد صاروا أحزابًا وفرقًا، وقد اجتمع ملوكهم إلى الكامل محمد صاحب مصر، وهو مقيم بنواحي القدس الشريف، فقويت نفوس الفرنج لعنهم اللَّه بكثرتهم بمن وفد إليهم من البحر، وبموت المعظم واختلاف من بعده من الملوك، فطلبوا من المسلمين أن يردوا إليهم ما كان صلاح الدين منهم، فوقعت المصالحة بينهم وبين الملوك أن يردوا لهم بيت المقدس وحده، وتبقى بأيديهم بقية البلاد فتسلموا القدس الشريف، وكان المعظم قد هدم أسواره، فعظم ذلك على المسلمين جدًّا، وحصل وهن شديد وإرجاف عظيم، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون»[1].

* بكاء الشعراء لبيت المقدس بعد تسليمه للفرنج:

وبكت الأمة تسليم أغلى مقدساتها للصليبيين، وكان الشعراء لسان حال الأمة.

قال أبو شامة في «الروضتين» (٢/ ٢٠٥): «ورثاه الرئيس الفاضل شهاب الدين أبو يوسف يعقوب بن محمد المجاور بقصيدة منها:

أعيني لا ترقَي من العَبَرات … صلي في البُكا الآصالَ بالبكَراتِ
لعل سيولَ الدمع يُطفئ فيضُها … تَوقُّد ما في القلب من جَمَرات
ويا قلبُ أسعر نار وجدك كُلما … خَبت بادّكار يبعثُ الحَسَرات
ويا فمُ بُح بالشجو منك لعله … يُروّح ما ألقَى من الكُرُبات

(١) «البداية والنهاية» (١٣/ ١٣٣).

على المَسجد الأقصى الذي جلَّ قَدرُه
على موطن الإخبات[١] والصلوات

على منزلِ الأملاك والوحي والهُدى | على مشهد الأبدال والبَدَلات
على سُلم المعراج والصخرة التي | أنافت بما في الأرض من صَخرات
على القبلة الأولى التي اتجهت لها | صلاةُ البرايا في اختلاف جهات
على خير مَعمورٍ وأكرَمِ عامرٍ | وأشرف مبنيّ لخير بُناةِ
وما زال فيه للنبيين معبدٌ | يُوالون في أرجائه السجَدات

عفا المسجُد الأقصى المبارك حوله الـ
ـرفيع العماد العالي الشُرُفات

عفا بعدما قد كان للخير موسمًا | وللبر والإحسان والقُربات
يُوافي إليه كل أشعثَ قانتٍ | لمولاه برٍّ دائمِ الخَلَوات
خلا من صلاةٍ لا يملُّ مُقيمها | تُوشح بالآيات والسوَرات
خَلا من حَنين التائبين وحُزنهم | فمن بين نُوّاحٍ وبين بُكاة
لَتَبكِ على القُدس البلادُ بأسرها | وتعلنُ بالأحزان والترحات
لِتَبك عليها مكةٌ فهي أُختُها | وتشكو الذي لاقت إلى عَرَفات
لِتَبكِ على ما حل بالقُدس طِيبةٌ | وتشرحهُ في أكرم الحُجُرات
لقد أشمتُوا عكا وصورٍ بهدمها | ويا طالما غادَتهُما بشَمَات
لقد شتَّتُوا عنها جماعة أهلها | وكل اجتماعٍ مُؤذنٌ بَشتات

(١) الإخبات: الخشوع والتواضع.

وقد هَدَموا مجدَ الصلاحِ بهدمها وقد كان مجداً باذخَ الغُرُفاتِ
وقد أخمدوا صَوتًا وصيتًا أثاره لهم عُظمُ ما والوا من الغَزَوات
أما علمت أبناءُ أيوب أنهُم بمسعاته عُدّوا من السرَوات[1]
وأن افتتاحَ القُدس زهرةُ مُلكهم وهل ثمرٌ إلا من الزَهَرات
فمن لي بنوّاح يَنُحنَ على الذي شَجاني بأصوات لهن شجاة
يُرَددنَ بيتًا للخزاعي قاله يُؤبِّنُ فيه خيرة الخيَرات
مدارسُ آيات خَلَت من تلاوةٍ ومنزل وحيٍّ مُقفرُ العَرَصات[2]

وأنشد عبد الرزاق بن رزق اللَّه بن أبي الهيجاء الرَّسْعني لما سمع الخبر بتسليم البيت المقدّس إلى الفرنج خذلهم اللَّه:

تعالوا نُقيم الحزن في مجمع الأنس ونصبغُ أثواب المصيبة بالنِّقْس[3]
ونعمل للإسلام أعظمَ مأتمٍ كما أن عُبّادَ الطواغيت في عُرس
ونبكي دمًا بعدَ الدموع وإنَّهُ قليلٌ على ما قد أُصبنا من القُدس
أيؤخذُ والإسلامُ فيه بقيةٌ فوا عجبًا أين النخاةُ من الحُمْس
عذيرك من ضرب النواقيس موضع الـ
أذان وتبديل الأئمة بالقُّس
مَنامًا أرى أم يقظةً ما سمعتُه أحقًّا عبادَ اللَّه أم خانني حسي
لئن تمَّ هذا الأمر لا تمَّ إنَّه لأشهى إلى نفسي حلوليَ في رَمسي

(١) السروات: أهل الشرف والدين والكرم والمروءة.
(٢) «الروضتين» (٢/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦).
(٣) النِّقس: بكسر النون المشددة: المداد الذي يكتب به، والنَّقس بفتح النون المشددة: العيب.

لئـلا أرى داعي الضـلال مُـصـوِّتًا ... على المسجد الأقصى يؤذنُ بالنَّقْس[١]
لعـمـرك هذا الرُزء لا هُلكُ هالكٍ ... ولا سَلبُ مالٍ لا ولا عَدَمُ النَّفْس

ولو قيل للبيت المقدس تكلّم عن مصابك لقال مثلما قال الشاعر:

إن يكُنْ بالشـام قلَّ نَصيري ... وتَهـدَّمتُ ثم دامَ هُلوكي
فلقد أصبحَ الغداة خرابي ... سمةَ العار في حياة الملوك[٢]

سلّم الملك الكامل لفردريك الثاني ملك الفرنجة القدس ما عدا المسجد الأقصى، سُلِّمت المدينة وسط مظاهر الحزن والسخط سنة ٦٢٦هـ ١٢٢٩م.

وبقيت في أيديهم حتى سنة ٦٣٧هـ عندما استردها الملك الناصر داود ابن أخي الكامل ولكن الناصر سلّمها مرة أخرى سنة ٦٤١هـ. ثم عادت إلى الإسلام نهائيًّا سنة ٦٤٢هـ عندما استردها الخوارزمية، جنود الملك نجم الدين أيوب ملك مصر. وقد بلغ عدد السنين التي دخلت القدس فيها تحت سيطرة الأوربيين ٩٩ سنة من سنة ١٠٩٩ ـ ١١٨٧م (٨٨ سنة).

ومن سنة ١٢٢٩م ـ ١٢٣٩م (١٠ سنوات).

ومن سنة (١٢٤٢ ـ ١٢٤٣م (سنة واحدة المجموع: ٩٩ سنة).

❀ ❀ ❀

(١) النَّقْس: الضرب بالناقوس.

(٢) «وفيات الأعيان» لابن خلّكان (٦/ ٢١٨)، و«نفح الطيب» (٢/ ١٦).

المماليك مغاوير الإسلام.. حفظة فلسطين الأمناء

صارت القدس بأيدي المماليك سنة ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م وبقيت كذلك حتى سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م...

وقفوا سداً منيعًا أمام الصليبيين وحرموهم من تحقيق أطماعهم في العودة إلى القدس.

* بيبرس المجاهد العظيم الذي أدّب التتار والصليبيين:

□ الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الذي قال عنه ابن كثير: «كان شهمًا شجاعًا عالي الهمة بعيد الغور مقدامًا جسورًا، يشفق على الإسلام، له قصد في نصرة الإسلام وأهله»[(١)].

أنشأ الدولة العباسية بعد دثورها، وبقي الناس بلا خليفة نحوًا من ثلاث سنين. أقامه اللَّه عونًا ونصرًا للإسلام وأهله، وشجًا في حلوق المارقين من الفرنج والتتار والمشركين.

أرسل البطل بيبرس إلى مقدم الاستبارية لما نقضوا عهودهم معه:

«ما جعلنا حصوننا إلا خيولنا، ولا خنادقنا إلا سيوفنا، ولا أسوارنا إلا رجالنا. وأما قولكم إن قلاعكم ما تخاف إلا اللَّه، ولا يجسر أحد أن يصل إليها، فسوف ترون كيف يكون الوصول إليها إن شاء اللَّه تعالى»[(٢)].

---

(١) «البداية والنهاية» (١٣/ ٢٧٥).

(٢) «كتاب السلوك» للمقريزي (١/ ق٢ - ٩٦٥).

« من خفي عليه خروج هذه العساكر، وجهل ما علمته الوحوش في الفلاة والحيتان في المياه من كثرتها التي لعلّ بيوتكم ما فيها موضع إلا ويكنس منه التراب الذي أثارته خيل هذه العساكر، ولعل وقع سنابكها قد أصم أسماع من وراء البحر من الفرنج وَمَن في موقان[1] من التتر».

- فتح بيبرس قيسارية عنوة سنة ٦٦٣هـ، وفتح في طريقه عثليت، والملوحة وحيفا.

- وفتح قلعة أرسوف[2] عنوة سنة ٦٦٣هـ بعد أن أقام الحصار على هذه القلعة أربعين يومًا ليلاً ونهارًا بأنواع الحصار.

ولما أعيا الفرنج الأمر طلبوا الأمان فلم يؤمّنوا، وتسلّقت إليهم الرجال، وأُخِذت، وأسر من بها غير من قتل. وكان فتح القلعة يوم الخميس حادي عشر من رجب، استسلم قائد القلعة الذي فقد ثلث فرسانه، مقابل الحصول على وعدٍ بالإبقاء على حياة الذين نجوا من القتل. وأثار سقوط هذا الحصن الكبير مشاعر الإفرنج ومخاوفهم، وهذا ما أوحى إلى شاعر الداوية الغنائي «ريسوبونوميل» من التروبادور أن ينظم قصيدة بالغة المرارة يشكو فيها من أن المسيح أصبح ـ فيما يظهر ـ مسرورًا لما حلّ بالمسيحيين من مذلة وهوان»[3] .

---

(١) موقان إحدى أقسام أذربيجان، انظر: «السلوك».

(٢) مدينة على الساحل بين قيسارية ويافا.

(٣) «الظاهر بيبرس ونهاية الحروب الصليبية القديمة» لبسام العسلي ص(٢٨ ـ ٢٩) ـ دار النفائس.

ولما أرسل المسيحيون الذين في عكا وفدًا يطلبون من بيبرس السماح له بمواراة جثث قتلى قرية «قارة» أغلظ في رفض طلبهم، وقال لهم بأنهم إذا كانوا يلتمسون جثث القتلى فسوف يجدونها في وطنهم، ولتنفيذ تهديده هبط إلى الساحل، وقتل كلّ من وقع في يديه من المسيحيين.

◻ كما انتزع الملك الظاهر صفد من بين أيدي الفرنج قهرًا سنة أربع وستين وستمائة[1] وتسلم الحصن وقت صلاة الجمعة ثامن عشر شوال.

◻ وتمّ فتح يافا التي تغلّب عليها من قبل الفرنج، ونازلتها ملوك كالناصر صلاح الدين والعادل أخيه وغيرهما، ولم يتفق فتحها، وخُبّئ للسلطان[2] ، وذلك سنة ست وستين وستمائة، تمت إبادة المقاومة، وتدمير القلعة.

◻ وكذلك فتح حصن الشقيف في نفس السنة، وقال الإسلام: هذي بضاعتنا رُدَّت إلينا، وذلك في سابعة يوم الأحد سلخ شهر رجب المبارك.

وبحمد اللَّه قد أصبحت تلك الضالة التي فقدها الإسلام منشودة، وتلك العارية التي استولت عليها يد الكفر مردودة. هذه القلعة التي فرض الداوية سيطرتهم عليها، وأصبح رجالها بعد ذلك أرقاء.



(١) «البداية والنهاية» (١٣/ ٢٤٦، ٢٤٧).

(٢) «حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية» لشافع بن علي ص(٢٥٦) ـ الرياض.

* **الملك الأشرف خليل، يفتح عكا، ثم يدمّرها سنة ٦٩٠هـ ويطهر كل الساحل من دنس الصليبيين:**

سار هذا البطل العظيم لفتح عكا بجيش يضم ستين ألف فارس، ومائة وستين ألفًا من المشاة، ومعهم العرّادات، والمجانيق التي اشتهرت باسم «الثيران السوداء»...

واحتشد النصارى من الداوية والأسبتارية، وفئة من الإنكليز والألمان ومقاتلي قبرص، وانضمّ إليهم بعد مدّة ملك قبرص «هنري»، وكانت تحصينات المدينة قوية ومتينة.

ونصب السلطان الأشرف على عكا اثنين وسبعين منجنيقًا، وقاتل من بها من الفرنج أربعة وأربعين يومًا حتى فتحها عنوة، في يوم الجمعة السابع عشر جمادى الأول، وهدمها كلها بما فيها وحرقها.

◻ أخذها الصليبيون بعد أن غدروا بأهلها في يوليو ١١٩١م بعد مقاومة باسلة من قراقوش، ثم استردها الأشرف خليل في ١٨ من مايو سنة ١٢٩١، أي بعد قرن كامل من الزمان.

ولم تكد عكا تقع في قبضة الأشرف، حتى شرع في تدميرها، واستباحة دورها وأسواقها، ثم إشعال الحريق بها، كما تم تدمير الأبراج والقلاع المنيعة حتى لا تكون رأس حربة لما يقوم به الفرنج الصليبيون من اعتداء على بلاد الشام، ولقد قتل جيش الملك الأشرف خليل في اجتياحه للمدينة حوالي عشرة آلاف صليبي، ولم يقبل السلطان أن يأخذ أسرى من المدحورين، بل فرّق عشرة آلاف منهم على أمراء الجند فقتلوهم عن آخرهم[1].

---

(١) «فتح عكا تذكارات وعلامات تاريخية» مقال للدكتور أحمد السيد الصاوي - من مجلة القدس العدد ٢٠ - جمادى الأولى ١٤٢١هـ ص(٢٧).

ما مثل عكّا في الحصون لأنها أم القرى يأتمّها الكفار
كانت لهم كرسي مملكة إلى تحصينها في المعضلات يصار
حتى أتاها الأشرف الملك الذي خافت فرنج بأسه وتتار
فشفى صدور المسلمين بفتحها ولتفتحنّ بغزوه الأمصار

□ والحقيقة أن الأشرف لم يلجأ إلى هذه المذبحة انتقامًا لمثيلتها من مائة عام، ولكن قبل ذلك وبعده ليوقع الرعب في قلوب الصليبيين الذين ارتجفت أوصالهم في بقية الإمارات الصليبية في الشام، ورحلوا عن بقية مدن الساحل تباعًا.

وطهرت صور، وصيدا، وحيفا، وجبل الكرمل، وطرسوس، وعثليت. وسيذكر التاريخ لهذه الملك العظيم اقتلاعه لآخر مواقع الفرنج الذين بقوا ـ وعلى امتداد مائتي سنة ـ جرثومة في بلاد الطهر اجتثها سيف الأشرف.

نالت القدس ممن المماليك اهتمامًا كبيرًا، فأنشؤوا المدارس، وأجروا تعميرات على قبة الصخرة والمسجد الأقصى. وفي سنة ٧٧٧هـ جعلوا القدس نيابة مستقلة تابعة للسلطان، بعد أن كانت تابعة لنيابة دمشق، ومن آثارهم أنهم سحبوا الماء من عين العروب إلى القدس. وغدت القدس زمن المماليك مركزًا من أهم المراكز العلمية في العالم الإسلامي.. يفد إليها الدارسون من الأقطار كلها.

□ يقول الأستاذ «محمد حسن شرّاب» في كتابه القيّم «بيت المقدس» (٤٢٥ ـ ٤٣٠):

«وهؤلاء الذين نصفهم بالمماليك، هم الذين هزموا أكبر غزو

وحشـي على البلاد الإسـلاميـة، بعد الغـزو الصليبي، ألا وهو الـغزو المغولي ومـعركة عين جـالوت تتحدث عنها الـركبان، وتُعدُّ رمـزًا لقوة الإسلام فالمعارك الـفاصلة في تاريخ الإسلام هي: بَدرٌ، وحطين، وعين جالوت..

.. وعَهـد هؤلاء الأفـذاذ العلمي، من العهـود الزاهرة، وآثارهـم العلمية، والعمرانية شاهدة لتاريخهم المجيد.

فقد عددت لـهم في القدس وحدها خمسًا وثلاثين مـدرسة لتعليم العلوم النافـعة وعـشرات من المسـاجد، والبنايات والأوقـاف والأربطة، والإصلاحات.. وإنَّ عصرهم كان خيرًا للمسلمين، وللعرب، وللأماكن المقدسة، من العصر التركي، الذي كـان يملك العالم في عصره، وأمواله لا يحـصـيهـا العـدّاد. إنهـا إذا كانـوا مماليك، فإنـهم في رأيي مماليك الإحسان، على معنى قول الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبدْ قلوبهم ... فطالما استـعبد الإنسـانَ إحسـانُ

وقول الشاعر:

إذا أنت أكـرمت الكريم ملكتـه ... وإن أنت أكـرمت اللئـيم تمرّدا

فهؤلاء أحسوا في قرارة نفوسهم أنَّ اللَّه أحسن إليهم عندما جعلهم مسلمين وحـكامًا، فامـتلك قلوبهـم هذا الإحسـان. لم يفـخـروا بنسب ينتمون إليه، وإنما فخروا بـأعمالهم التي خلدتهم. ومن حقهم علينا، أن نلقبهم بأحبّ الألقـاب إليهم في حياتهم، ومن حـقهم علينا أن نذكرهم في التـاريخ بالصفـة التي تدل على الوفاء لهـم جزاء ما قـدموا للـعرب والمسلمين. ومن الأوصاف المناسبة لعصرهـم أن نقول «عصر الأفذاذ».

* **ثانياً: آثارهم في المسجد الأقصى، والحرم القدسي:**

(أ) الأروقة في المسجد الأقصى:

في حرم المسجد الأقصى من جهة الغرب أروقة مبنية بالبناء المحكم. وهي ممتدة من جهة القبلة إلى جهة الشمال.

وأولها: عند باب الحرم المعروف بباب المغاربة. وآخرها عند باب الغوانمة [انظر: «مخطط الحرم الشريف»] وكلها عُمّرت في سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون في مُدد مختلفة.

فالرواق الممتد من باب المغاربة إلى باب السلسلة، عُمّر سنة ٧١٣هـ.

والرواق الممتد مما يلي منارة باب السلسلة، إلى قرب باب الناظر عُمّر سنة ٧٣٧هـ.

والرواق الممتد من باب الناظر إلى قرب باب الغوانمة، عُمّر سنة ٧٠٧هـ.

(ب) **رُخّم صدر المسجد الأقصى**، أي: حائط المسجد الجنوبي، وفُتح بالمسجد الشباكان اللذان على يمين المحراب وشماله سنة ٧٣١هـ.

(ج) **جُدّد تذهيب قبة الصخرة**، وقبة الأقصى حوالي سنة ٧٢٠هـ.

(د) **عُمّرت القناطر** التي تسمّى «الميازين» على رأس المرقبين الشماليين بصحن قُبة الصخرة، أحدهما مقابل باب حطّة، والآخر مقابل باب شرف الأنبياء، وكانت عمارة الأول سنة ٧٢١هـ والثاني سنة ٧٣٦هـ.

(هـ) **جُددت عمارة باب القطانين سنة ٧٣٦هـ**، وهو أحد أبواب الحرم الغربية.

(و) **المدرسة الجاولية:** (ولتعرف بكلية روضة المعارف الوطنية سابقًا) وهي واقعة في الجهة الشمالية الغربية من ساحة الحرم الشريف. وقفها الأمير علم الدن سنجر الجاولي نائب غزة سنة ٧١٥هـ وكان من أهل العلم وله مصنفات كثيرة.

(ز) **سبيل قايتباي:** بناه السلطان قايتباي سنة ٨٨٧هـ.

(ح) **المدرسة التنكزية:** واقفها الأمير تنكز، نائب الشام، وهي مدرسة مُتقنة البناء. وموقعها على يمين الداخل إلى الحرم الشريف من باب السلسلة، وهو باب الحرم الرئيس. وعلى باب المدرسة نقش يفيد بناء المدرسة سنة ٧٢٩هـ.

(ط) **الرخام المبني** في حائط المسجد الأقصى الجنوبي عند المحراب لجهة الشرق... وهو من آثار تنكز نائب الشام.

(ي) جدّد تنكز، قناة الماء الواصلة إلى مدينة القدس من العَرُّوب سنة ٧٢٧هـ ووصلت إلى القدس، ودخلت وسط الحرم سنة ٧٢٨هـ. وبنى تنكز البركة الرخام التي بين قبة الصخرة والمسجد الأقصى.

(ك) **مئذنة باب الأسباط:** عُمرت في أيام الملك الأشرف شعبان سنة ٧٦٩هـ. وجددت في أيامه الأبواب الخشبية المركبة على أبواب المسجد الأقصى، وعمارة القناطر على السلالم الموصلة إلى صحن قبة الصخرة المقابل لباب الناظر.

(ل) **منبر برهان الدين:** مبنيّ بألواح من الرخام الأبيض على رأس السلم المقابل للباب الجنوبي لقبة الصخرة. وقد عمره قاضي القضاة برهان الدين بن جماعة وإلى جانبه إلى الغرب منه محراب. ويُصلَّى في

هذا المكان العيد والاستسقاء وتوفي القاضي المذكور سنة ٧٩٠هـ.

.. هذا ما تيسرت معرفته من إنشاءات وإصلاحات الأفذاذ في منطقة الحرم الشريف، وأذكر الآن بإيجاز أسماء المدارس التي أوقفوها في القدس الشريف لخدمة المجاورين في المسجد الأقصى.

*** ثالثاً: المدارس التي أوقفها السلاطين الأفذاذ، لخدمة أهل المسجد الأقصى:**

- دار الحديث: سنة ٦٦٦هـ.
- المدرسة الدوادارِيّة، وتعرف اليوم بمدرسة الإناث الإسلامية سنة ٦٩٥هـ.
- المدرسة السلامية: سنة ٧٠٠هـ.
- المدرسة الكريمية: بالقرب من باب حطة سنة ٧١٨هـ.
- المدرسة الجاولية: سنة ٧١٥هـ.
- المدرسة التنكزية: نسبة إلى تنكز، والي الشام. سنة ٧٢٩هـ.
- المدرسة الأمينية: على الجانب الغربي من الطريق المؤدي باب الحرم المعروف بباب شرف الأنبياء سنة ٧٣٠هـ.
- المدرسة الملكية: في الجهة الشمالية من الحرم سنة ٧٤١هـ.
- المدرسة الفارسية: في الجهة الشمالية من الحرم سنة ٧٥٥هـ، وواقفها الأمير فارس الدين، نائب غزة.
- المدرسة والتربة الأرغونية: بالقرب من باب الحديد سنة ٨٥٩هـ. ودفن فيها الملك حسين بن علي.
- المدرسة الطشْتَمرية: بباب الناظر: سنة ٧٥٩هـ.

- المدرسة المنكيّة: بالقرب من مدخل الحرم الغربي المعروف بباب الناظر، وكان يشغل مبناها دوائر المجلس الإسلامي الأعلى سابقًا. سنة ٧٦٢هـ.
- المدرسة الطازية: بطريق باب السلسلة لجهة الشمال. سنة ٧٦٣هـ.
- المدرسة الشيخونية: سنة ٧٦١هـ.
- دار القرآن السلامية: على الجانب الغربي من طريق باب السلسلة سنة ٧٦١هـ.
- المدرسة المحدثية: عند باب الغوانمة سنة ٧٦٢هـ.
- المدرسة الإسعردية: في الجهة الشمالية من الحرم سنة ٧٦٠هـ.
- المدرسة اللؤلؤية: سنة ٧٨١هـ.
- المدرسة البلدية: في الجهة الشمالية من باب السكينة، ويسمونه باب السلام، وهذا الباب بحذاء باب السلسلة لجهة الشمال سنة ٧٨٢هـ.
- المدرسة الخاتونية: بالجهة الغربية من الحرم على يمين الخارج من باب القطانين وقد دُفن فيها الزعيم الهندي مولانا محمد علي. ودفن فيها موسى كاظم الحسيني رئيس اللجنة التنفيذية العربية، وابنه الشهيد عبد القادر الحسيني الذي استشهد في معركة القسطل ٨/ ٤/ ١٩٤٨م.. والمدرسة موقوفة سنة ٧٥٥هـ، وأُكملت سنة ٧٨٢هـ.
- المدرسة البارودية: بباب الناظر، سنة ٧٦٨هـ.
- المدرسة الحنبلية: بباب الحديد، في سنة ٧٧٧هـ.
- المدرسة الجهاركسية: سنة ٧٩١هـ.
- المدرسة الصبيبية: في الجهة الشمالية من ساحة الحرم سنة ٨٠٩هـ.
- المدرسة الكاملية: بخط باب حطّة لجهة الغرب. أوقفت سنة ٨١٦هـ.

□ المدرسة الباسطية: شمال الحرم بالقرب من باب شرف الأنبياء (باب الملك فيصل) سنة ٨٣٤هـ.

□ المدرسة الطولونية: بداخل ساحة المسجد الأقصى عند الرواق الشمالي، يُصعد إليها من السلم الموصل إلى منارة باب الأسباط. سنة ٨٠٠هـ.

□ المدرسة الغادريّة: في الجهة الشمالية من ساحة الحرم بين باب شرف الأنبياء ومئذنة باب الأسباط. سنة ٨٣٦هـ.

□ المدرسة الحسنية: بطريق باب الناظر سنة ٨٣٧هـ.

□ المدرسة العثمانية: وتعرف بدار الفتياني واقعة على يسار الخارج من الحرم من باب المتوضأ المعروف بباب المطهرة سنة ٨٤٠هـ.

□ المدرسة الجوهرية: بطريق باب الحديد في الجهة الشمالية، وتعرف بدار الخطيب سنة ٨٤٤هـ.

□ المدرسة المزهريّة: بباب الحديد سنة ٨٨٥هـ.

□ المدرسة الأشرفية: على ميسرة الداخل على الحرم عند باب السلسلة، وتقف على سطحها مئذنة باب السلسلة سنة ٨٨٥هـ. بناها السلطان قايتباي. وله أيضًا السبيل المعروف باسمه داخل الحرم بناه سنة ٨٨٧هـ، ومن آثاره المرقى الموصل إلى صحن قبة الصخرة في الجهة الجنوبية الغربية بالقرب من المدرسة النحوية وفي سنة ٨٨٧هـ بني مئذنة جامع عمر، بجوار كنيسة القيامة.

□ دار الخطابة: واقعة بظاهر سور المدينة المحيط بالمسجد الأقصى من جهة الجنوب، بجوار الزاوية الختنية من جهة الغرب، ويرجع بناؤها إلى نهاية القرن التاسع الهجري.